عزيز نيسين

تِري.. لّي.. لَمْ

ترجمه: عبد القادر عبد اللي



تَدِي لَيْ لَمْ

عزيز نيســين



ترجمة: عبد القادر عبد اللي

المدى

منشورات .



اسم المؤلف :عزيز نيسين
عنوان الكتاب :تري.. لي.. لم
المترجم :عبد القادر عبداللي
الناشر :دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة الأولى :١٩٩٨

Author : Aziz Nessin
Title : Teri.. Lai.. Lam

Al Mada : Publishing Company
First Edition 1998

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

الشخص المنتظر

الاسم يشبه الاسم ، والمكان يشبه المكان ، والإنسان يشبه الإنسان ، والرجل كأنه الرجل ، والمرأة كأنها المرأة . . إن ما نحكيه حكاية . . فإذا زل لساننا وذكرنا اسمكم فنرجو عفوكم .

كان ياما كان في أحد الأيام ، كان رجل في مدينة بخارى . قلب هذا الرجل أطهر من الماء ، عيناه على الأرض وجبينه في السماء ، ولا يتوانى لحظة عن ذكر اسم الوضّاء . لا يقدم على سوء ، ولا يخطو خطوة دون وضوء . لا يعير انتباهاً لهراء ، ولا يقطع وقت صلاة .

بلغ الأربعين ، طوال حياته ما حفر أمام إنسان ، ومافك دكته لحرام ، وما كتب حرفاً دون معنى في كلام . كان ملاكاً لا ينقصه إلا جناحان . يتهادى في مشيته كأنه يطير . لا يضايق أحداً ، ولو داس على نملة لما أوجعها . هكذا كان الرجل .

اعتكف على الدعاء لله ، والرجاء من المرتجى ، حتى إنه دماً قد بكى ، وكان يقول : «اللهم اجعلني أسمو في طريق الحق» . وفي نهاية ليلة اليوم الثالث للدعاء ، وفي الصباح الباكر تناهى إلى سمعه صوت .

ـ أيها العبد الصالح! . . .

رد على الصوت

ـ سمعاً وطاعة .

ـ في مكان ما من هذه الأرض يوجد شيخ اسمه شزالت . ابحث عنه حتى تجده . هب نفسك له ، وكن عبده .

رد على الصوت القادم من ظلمة الفجر الشديدة .

ـ أمرك على الرأس والعين!

من هذا المنزول إلى ذاك الموقف ذهب وجاب . قطع الجبال والوديان والوهاد . وسار على مدى صيفين وشتاء . في النهاية وصل إلى مدينة تدعى بغداد . بحث وما ترك أحداً دون أن يسأله ، وما ترك باباً لم يطرقه . لكنه لم يجد الشيخ شزالت . عندما كان يسأل أحدهم عنه ، كان ذاك يجيبه :

ـ الشيوخ كثيرون ، ولكن لا يوجد من يدعى شزالت .

مشى أربعين يوماً ، وفي اليوم الخادي والأربعين وصل إلى مدينة تدعى شام . لم يجد من يبحث عنه في الشام . وصل إلى بصرى وهنا ما وجده . ومن هنا إلى دولة الروم ، ومنها إلى دولة العجم ، وما وجد الشيخ شزالت في أي مكان وصل إليه . غدا الرجل عجوزاً . شعره منسدل على كتفيه ، ولحيته إلى زناره . عاد إلى مدينة بخارى . مرت عليه أيام لم يذق فيها زاداً ، ولم يغمض له جفن . لم تعد ركبتاه تستطيعان حمله ، فانهار على جانب نهر . نظر الى المجرى وهمّ قائلاً لنفسه :

ـ لأجدد وضوئي ، وأقيم صلاتي .

وبينما كان يتوضأ على حافة النهر ، رأى خيارة تنساب إليه مع تيار الماء . لم يستطع المقاومة . التقط الخيارة ليسد جوعه . خيارة كبيرة جعلها لقمتين . مضغها وبلعها . قال لنفسه : أكلت خيارة لا أعرف صاحبها . هذه ثمرة محرمة لأنني لا أعرف مالكها . سأبحث عن حقلها . وبعد أن أجده ، سأعرف صاحبه ، وأستسمحه عن الخيارة التي أكلتها .

نهض وسار في عكس اتجاه التيار ، فوجد حقل الخيار . سأل عن صاحبه فقالوا له :

ـ يسكن في هذه الدار .

قرع الباب . تنبعث من الداخل أصوات قوية لشتائم وسباب . الأصوات قوية تهز الجبال والصخر . كان فاتح الباب رجلاً تبدو عليه علائم الشر . في خصره حزام ، وفي الحزام غدار . انتصب أمامه وقال :

ـ ماذا تريد يا حمار ؟

فقال :

ـ أريد صاحب حقل الخيار . .

دخل الرجل فوجد أربعين غرفة في الدار . في كل غرفة أربعون من اللصوص والمناحيس والأشرار . جلسوا يلعبون النرد ، والورق والقمار . كان صاحب الحقل متربعاً على طنفسة ، ويجمع من الرابحين حصة . قال له صاحب الحقل مزمجراً :

ـ ماذا تريد ولاه ؟

رد عليه قائلا :

ـ يا سيدي ، من هذه النواحي كنت ماراً . كنت جائعاً ، وتعباً ونعساً ، قلت لنفسي أجدد وضوئي على حافة النهر وأصلي . فرأيت على سطح الماء خيارة تتجه نحوي . لشدة جوعي اسودت عيناي وطار صوابي . فلم أستطع صبراً فأكلتها ، ثم عرفت أن ما فعلت كان حراماً ، فسألت عن صاحبها . علمت أنها من حقلكم . والآن أتيتكم . ومن أجل الخيارة التي أكلتها أرجو سمحكم .

قال له الرجل الجالس على الطنفسة :

ـ هذا الحقل ليس لي وحدي . نحن ثلاثة أخوة . رجلان وامرأة . أخي الأصغر يسكن في مدينة تدعى بلخ ، أما أختي فهي في مدينة تدعى مروة . الخيارة التي أكلتها ليس لي فيها إلا الثلث . ثلثاها لأخوي . فلو سامحتك لما كان سماحي إلا لثلثها . ثلثاها لهما .

قال له وهو منتصب أمامه باستعداد :

ـ إذا كان الأمر على هذا النحو ، فسامحوني بثلثها . وسأذهب إلى

أخويك واستسمحهما بثلثيها الباقيين .

ـ بيتي هذا مقمرة . أديرها بسرية عن الدولة . لهذا السبب فأنا أسكن في بيت بعيد عن مدينة بخارى . إذا خدمت في مقمرتي هذه عشر سنوات سأسامحك بثلث الخيارة التي أكلت . وإلا فلن أسامحك .

قال له بعد أن ارتمى على قدميه :

ـ أرجوك! . .

رفس صاحب المقمرة الرجل المرتمي على قدميه متوسلاً . فكسر له عظمه وأدمى أنفه . وعندما لم يجد مخرجاً ، عمل في المقمرة عشر سنوات ، لكي يحلل الخيارة التي أكلها حراماً . عمل عند الأبواب حارساً ، ولنسبة الربح جابياً ، وللأرض كانساًوماسحاً . وتعلم كل الحيل المتعلقة بما يدعونه قماراً . غدا لا يوجد في بخارى مقامر أفضل منه . عرف كيف يمسك النرد ، ويطبق أوراق اللعب . يرمي النرد دائماً دوشيشاً ، وفي كل فتحة ورق يسحب الورقة الأعلى . وبدون طول سيرة ، أصبح مقامراً ما عرف التاريخ مثله .

وبانتهاء السنوات العشر قصد صاحب المقمرة متوسلاً . فقال له :

ـ سامحتك بثلث الخيارةالتي أكلتها . والآن اذهب إلى أخوي واستسمحهما! . .

أخذ العنوان ، وخرج إلى الطريق بعد أن قبل اليد والثوب . ولأنه اعتاد على القمأر فما عاد يستطيع الاستغناء عنه فأينما حل كان يلعب ، وأهل المكان يسلب . ويأخذ النقد والمال من أي شخص معه يلعب . وإذا وقع في طريقه على بيت في قرية ، حول البيت إلى مقمرة .

من هذا المنزول إلى ذاك الموقف ذهب وجاب . قطع الجبال والوديان والوهاد . وسار على مدى صيفين وشتاء . وفي النهاية وصل إلى مدينة بلخ . وسأل وفتش . ووجد البيت الذي كان عنه يبحث . كان بيتاً ضخماً خارج المدينة . قرع الباب . كان ينبعث من البيت أصوات عزف وقهقهة وغناء .

كانت تلك الأصوات تهز الأرض والسماء . فتح الباب . كان الفاتح ثملاً ، لا يقوى على الوقوف على قدميه .

وفور فتحه الباب صرخ :

ـ هيـ . . . . .ـه! . . ماذا تريد يا حمار ؟

قال له ما أراد . ثم دخل فوجد في البيت أربعين غرفة . وبرميل خمر في كل منها لا يقف لحظة . والخمور كالسيل جارية في هذه الجهة يتسطح شاربو الحشيش والأفيون ، وفي تلك تموج الراقصات والعازفون . مر بين أشخاص ، طاسة خمر دفعة واحدة يشربون . ثم مثل في حضرة الشخص الذي سأل عنه . وبعد أن قبل الثوب واليد منه ، شرح له ما صار معه .

ـ يا سيدي سامحني أخوكم الأكبر بثلث الخيارة التي أكلتها . سامحوني بالباقي أنتم .

رد عليه :

ـ نحن ثلاثة أخوة . والحقل لنا جميعاً . ولنا أخت صغيرة تسكن مدينة مروة . فسماحي لن يكون إلا بثلث الخيارة .

ـ أرجوكم سامحوني ، ولو بثلثها .

ـ بيتي هذا خمارة . أديرها من غير علم الدولة . لهذا السبب فإن البيت خارج مدينة بلخ . إذا خدمت في خمارتي عشر سنوات سأسامحك بثلث خيارتي . وإلا فلن أسامحك .

ارتمى الرجل على قدميه ، وقال :

ـ أرجوك

لكنه رفسه برجله ورماه . ومن أنفه وفمه دمّاه

وعندما لم يجد مخرجاً خدم في الخمارة عشرة أعوام لكي يحلل الخيارة التي أكلها من الحرام . خلال هذه المدة قرّع بعصاته الثملين ، وطرد المشاغبين . فتح الموائد للسكارى ، وجمع البقايا . نظف بيوت الخلاء . أصبح سكيراً لا يوجد في العالم له مثيلاً . صار يشرب في وقفة زجاجة ،

وفي جلسة برميلاً . بلع براحة اليد أفيوناً ، وبالمشرب دخن حشيشاً . وبدون طول سيرة أصبح سكيراً لم ولن تشهد له الحياة مثيلاً .

عندما انتهت الأعوام العشرة ، ذهب إلى صاحب الخمارة وقبل أثوابه :

ـ سامحتك بثلث خيارتي ، والآن اذهب إلى أختي ، واطلب منها السماح بالثلث الباقي! . .

أخذ العنوان وذهب ، ولأنه اعتاد على الخمر والقمار فما عاد يستطيع صبراً دونهما . ولو صادف في طريقه قرية مؤلفة من بيتين فيحول الأول إلى مقمرة ، والثاني إلى خمارة .

من هذا المنزول إلى ذاك الموقف ذهب وجاب ، قطع الجبال والوديان والوهاد . وسار على مدى صيفين وشتاء . وفي النهاية وصل إلى المدينة التي تدعى مروة . سأل وفتش ، ووجد البيت الذي عنه بحث . كان بيتاً ضخماً خارج المدينة . تحيط به من أربع الجهات أشجار وكرمة . منها أشجار بغير ثمر ومنها مثمرة يجري أمام البيت نهر ماؤه كالفضة . على حافتي النهر ورود من جميع الألوان مصطفة . أمام البيت بركة . البركة من مرمر فيه نقش ذو صنعة . تسبح في البركة فتيات عاريات كما ولدن ، كالثلج بيضٌ بشراتهن ، لوزية تقدح شرراً عيونهن ، مثل الأقمار وجوههن . كالسيوف حواجبهن ، توجت بالذهب رؤوسهن ، أجمل الابتسامات على شفاههن ، نحيلات خصورهن . عندما يقفن كأنهن يطرن ، وكالملائكة عندما يتلاعبن .

كانت تتعالى من داخل البيت أصوات كلمات وضحكات ، وتأوهات ، تجعل الجبال والسهول تئن لهذه الأصوات . فتحت الباب امرأة عارية تماماً ، فضة جسدها ، وخيزران خصرها ، وتوت لسانها ، قالت :

ـ تفضل يا روحي ، تفضل يا عيني . .

دخل . كان في الداخل أربعون غرفة . تملأ الغرف نساء عاريات ، ورجال يحتضنونهن . ومن جهة أخرى تعزف الأعواد ، وتدق الدفوف ، وترن الأجراس ، وتشدو النايات .

صاحبة البيت عجوز شمطاء ، شعرها كالمكنسة ، رأسها كالطبل ، أسنانها كالفأس ، بطنها منفوخة ، عيناها غائرتان ، أذناها مغرفتان . أنفها كالمحشي ، ظهرها محني . أسنانها متساقطة . عمرها سبعون سنة . سألته :

ـ ماذا تريد ولاه قواد ؟

حكى لها ما جرى . وقال لها إنه جاء طالباً المسامحة بثلث الخيارة الباقي . قالت له :

ـ بيتي هذا بيت دعارة . أديره بشكل خفي عن الدولة . نحن ثلاثة أخوة ، والثلاثة مشاهير ، أخي الكبير يدير مقمرة ، والأصغر يدير خمارة ، وأنا أدير بيت دعارة . لهذا فأنا أعمل قوادة في بيت بعيد عن مدينة مروة . إذا عملت عندي في بيت الدعارة هذا مدة عشر سنوات سأسامحك بثلث الخيارة ، وإلا فلن أسامحك .

وعندما لم يجد مخرجاً ، خدم في بيت الدعارة عشرة أعوام . وفي هذه الفترة استقبل الزبائن وباع نساء واشترى . وبدون طول سيرة ، أصبح في هذا العمل خبيراً . ما عرف التاريخ مثله قواداً .

عندما انتهت السنوات العشر ، قبل ثوب المرأة القوادة واستأذنها . فقالت له :

ـ سامحتك بثلث الخيارة التي أكلت . هيا اذهب سهل الله لك الطريق . . ليجعل الله التراب بين يديك ذهباً .

ومن هذا المنزول إلى ذاك الموقف ذهب وجاب ، قطع الجبال والوديان والوهاد . وسار على مدى صيفين وشتاء . ثم دخل دولة الروم في صباح أحد الأيام . وهناك رأى مدينة لا يعرف اسمها . كان ينبعث من المدينة صوت الطبل والزمر . قال لنفسه ، لا بد أنه العيد . دخل من باب المدينة . وماذا رأى فيها ؟ رآها من كل جانب مزينة . أعلام وفوانيس . طبول تقرع ، وزمور تصدح . كان يسير وأمامه خمسة عازفين . وعلى بعد كل مائة خطوة تذبح الكباش ، والعجول والجمال والأغنام قرابين . آلاف الأشخاص على جانبي

الطريق احتشدوا ، والجميع بكل قوتهم صرخوا :

ـ عاش الشيخ شزالت! . .

ثم صفقوا وتقافزوا .

نصبت الأقواس في كل الطرقات . كل مائتي متر يوجد قوس ، كتب عليه : «أهلاً بالشيخ شزالت» .

دهش الرجل . توجه نحوه أشخاص يلبسون بزات السموكن ، والمعاطف الرسمية وعلى رؤوسهم قبعات اسطوانية . وصلوا إليه ، وانكبوا على قدميه ، وقبلو ثوبه ويديه .

قال الرجل وهو مندهش :

ـ ما هذا ؟ من هوالشيخ شزالت ؟ إنني أبحث عنه منذ سنوات . .

قال مقبلو اليدين والثوب والقدمين :

ـ رحماكم . نحن الذين نبحث عن الشيخ شزالت منذ سنوات طويلة . أنتم الشيخ شزالت . تعالوا لتكونوا على رأسنا .

رد الرجل :

ـ رحماكم ، قفوا ، لا تفعلوا شيئاً ، لا بد وأن في هذا الأمر خطأ .

ـ لا ليس في هذا الأمر خطأ ، شهرتكم ملأت الأصقاع ، ولا علم لكم بهذا .

ـ توقفوا! أنا مصاب بِعلّة .

ـ كلنا مصابون بعلّتك . ولكن لا أحد منا علته بحجم التي لك . لهذا السبب قررنا توليتك .

ـ لكنني مقامر .

ـ أوخ ، أوخ . . حسن ، حسن جداً . . كلنا مقامرون . ولكن لم يرتق أحد منا لسموك ، لهذا ستكون ملكنا .

ـ حسن ، ولكنني سكير! .

ـ رحماك ، حسن جداً . نحن جميعاً نشرب . ولكن لا أحد منا يشرب

مثلك . لهذا نطلب منك أن تكون على رأسنا .

ـ حسن ، ولكنني . . . .!

ـ أحسن يا سلطاننا . نحن جميعاً هكذا . وهل من حدّنا الوصول إلى منزلتكم! ولهذا السبب تاجاً على رؤوسنا نعتبركم ، وليس بيننا من يفوقكم ، ومنذ سنوات طويلة ونحن ننتظركم .

تفضلوا بالجلوس على عرشكم . .

فهم الرجل أنه أمضى ثلاثين عاماً ، كل عشرة في مكان لكي يصل إلى علو شزالت . وأن الشخص الذي كان يبحث عنه هو ذاته . وقد انتظروه سنوات طويلة لكي يتوجوه وسط فرق الموسيقى والمحبين . ودخل القصر ، وجلس على العرش .

القديس موكتوس، والعاهرة كامينا

لو طار موكتوس في أحد الأيام لما أدهش أحداً . وسبب عدم ارتقائه إلى السماوات حتى الآن ، لا بد أنه شد الغافلين ، الصابئين عن طريق الرب إلى الطريق القويم .

وفي يوم من الأيام ، سألته إحدى النساء القادمات إلى الكنيسة :

ـ يا أبانا المحترم . ثمة قضية . منذ زمن طويل ويشغل بالنا سؤال . هل أنتم تأكلون مثلنا نحن الفانين .

فهم موكتوس بسرعة ما رمت إليه المرأة الكاملة الدين . فلم يرد قول الحقيقة كاملة لكي لا يهدم خيال المرأة ، ولأنه لا يريد أن يكذب ، وبالتالي يعارض أمر الرب ، فاختار جواباً ما بين بين :

ـ أيتها الأخت ، أنا أُعَدُّ آكلاً ، وليس بآكل . ما آكله يومياً ثلاث حبات زيتون تمنحني قوة الدعاء إلى الله ، وما أشربه طاسة من النبيذ . .

اندهشت المرأة الكاملة الدين من هذه الكلمات . لأن كل سكان البلدة يظنون أن موكتوس يعيش كالملائكة دون طعام أو شراب . سألته المرأة :

ـ يا أبانا المحترم ، أستميحكم عُذراً ، هل تتثاءبون مثلنا نحن الفانين ؟

ـ لا أيتها الأخت ، لا أتثاءب .

ـ ولا تعطسون ، أليس كذلك ؟

ـ لا أعطس .

ـ هل تتجشؤون ؟

ـ لا أيتها الأخت ، لا أتجشأ .

قالت المرأة السعيدة لتلقيها هذه الإجابات ، وهي ترتجف :

ـ يا أبانا المحترم ، أريد أن أعرف شيئاً آخر . كل نساء القرية تتوق لمعرفته . يا ترى . .

ـ احكي يا أخت .

ـ أخجل يا أبانا المحترم . .

ـ يمكنك أن تسألي عن كل ما يخطر ببالك .

ـ هذا . . يا أبانا المحترم ، وهل أنتم أيضاً . . كما نحن معشر الفانين . . كيف أقول هذا ؟ . . هل تخرجون ؟ . . أي هل تذهبون إلى الحمام ؟

قطب موكتوس حاجبيه وقال :

ـ مستحيل . . أبداً . .

قبلت المرأة يد موكتوس . . ثم دخلت إلى بهو الكنيسة ، جلست على ركبتيها أمام مريم الأم . وهرعت إلى القرية بعد أن أكملت دعاءها . وقالت صارخة للنساء اللوتي كن ينتظرنها في الطريق وهي تصرخ :

ـ إنه قديس! إنه ملاك! إنه يعيش على أكل ثلاث زيتونات ، وشرب طاسة نبيذ ، وهو لايتثاءب ، ولايعطس ، ولا يتجشأ مثلنا نحن الفانين . وهو لا يعملها مثلنا نحن الفانين أيضاً .

لو طار موكتوس في أحد الأيام لما أدهش أحداً . ما يدهشهم هو عدم وجود هالة من النور على رأس موكتوس . حتى إن البعض ادعى أنه رأى على علو شبرين من رأس القديس موكتوس هالة من النور تسير معه .

أصبحت شهرة القديس موكتوس تنتشر من يوم إلى يوم . كانوا يقصدونه من أمكنة تبعد أياماً ، أو أشهراً لتقبيل يده ، ونيل دعائه . وفي أية

لحظة من لحظات النهار أو الليل ثمة مئات الأشخاص ينتظرون عند باب كنيسته ، لرؤية نور الرب المتلامع في وجهه . عندما يمر بيده على مريض يُعافى ، وإذا اعتنى بكسيح يمشي ، ويبصر الأعمى . كانت الطرقات المؤدية الى القرية مليئة بالمحرومين ، والمصابين بالصفرة ، والمسحورين ، ولتقبيل يد القديس موكتوس لاهثين .

إن القديس موكتوس يستطيع الارتقاء إلى إحدى درجات القداسة العليا المسيحية ، ومن الممكن له حيازة أعلى المراتب الكنسية ، لكنه لا يريد ترك كنيسة هذه القرية

القديس موكتوس لايرتكب أية محرمة ، بيده ، أو بلسانه ، أو ببصره . . باختصار لا يرتكب محرمة بأية من حواسه . رهن في طريق الرب حياته . ويجد ناقصاً كل ما يفعله . كل ما يريده تقديم نفسه في سبيل ربه . ولكن ماذا يمكن له فعله ؟ شن الحرب على الكفرة يفوق استطاعته ، وإشهار السيف وهمز الخيل فوق طاقته . ولكن كيف له أن يخمد نار القداسة التي تغلي في قلبه ؟

قضى ثلاثة أيام بلياليها يناجي ربه . وفي نهاية الليلة الثالثة تناهى صوت إلى أذنه :

ـ أيها القديس موكتوس ، سر نحو البحار . . أدخل قبساً من نارنا المقدسة إلى قلوب محاربي الكفار في سبيل الدين! . .

هبط القديس موكتوس الطريق جاعلاً أطراف جبته تتطاير في الهواء . وصل إلى الميناء ، كانت ترسو ست سفن ، امتدت كالتنينات في الماء . وهي تتأرجح على الموجات الهادئة وكأنها تتمطى .

ألقى القديس موكتوس على بلدة البحارة نظرة من عل على القرية . كانت الريح تعبث بشعره الطويل ولحيته القوية . جلس على ركبتيه ورفع يديه الى السماء :

ـ ظهر البحر لنا فلنذهب نحو الأعداء . . ولنسلب أرواحاً ، ونضحي

بأرواح . .

نزل إلى البلدة مطيراً أطراف ثوبه . كان ثمة خمارات للبحارة على شاطىء الميناء . كان القراصنة المخمورن يتعاركون ويتضاربون ويتبادلون الشتائم ويتمازحون بشكل ناب ، ومع العاهرات يتلاعبون ،والجميع عن طريق الصواب منحرفون .

فهم القديس موكتوس سبب إرساله إلى هنا بأمر رباني . يجب عليه أن ينادي هؤلاء المنحرفين إلى جادة الحق . رجا الساقي أن يعرفه على أحد رؤساء القراصنة . أخبر الساقي موكتوس أن ثمة قبطاناً لسفينة ألقت مرساتها للتو ، في الداخل . صعد موكتوس الدرج المصنوع من جذوع الأشجار . دخل الى غرفة القبطان القرصان . كان ثمة امرأة في حضن القبطان ، وأخرى تتكئ برأسها على ركبته وهو متمدد علي سريره . كانت الامرأتان شبه عاريتين . القبطان القرصان يلعب القمار مع ثلاثة قراصنة ، والمرأة التي في حضنه تجرعه باستمرار من طاسة الخمر .

وبصوت مخنوق قال القبطان المعصوبة عينه اليسرى بقماش أسود ، والموشومة ذراعه العارية بوشم عروس البحر متسائلاً :

ـ ماذا هنالك ياذا الجبة السوداء ؟

أخبره القديس موكتوس بأنه أتى من مناطق بعيدة لكي يضحي بروحه في سبيل الرب ، ويحقن قلوب الأبطال الذين سيهاجمون الكفرة بحب الدين . قال القبطان القرصان :

ـ إيه ، وماذا سيحدث بعد هذا ؟

قال القديس موكتوس :

ـ خذوني معكم على ظهر سفينتكم . .

كان القبطان مع كل ضحكة يطلق قهقهة كقطعة جليد تقذف من فمه . قال :

ـ بماذا تنفع أنت ياذا الجبة السوداء ؟

قال له القديس موكتوس متوسلاً :

ـ أدعو لكم بالنصر عندما ستهاجمون الكفرة ، وأحرض الأبطال بواسطة حب الرب الذي سأبثه في قلوبهم . أتوسل إليكم ، خذوني معكم .

قال القبطان القرصان :

ـ اسمع ، ذو جبة سوداء سيدخل سفينة ما وطأتها قدم امرأة ، أليس كذلك ؟ يبدو أن هذه السفرة ستكون مرحة جداً . تعال معنا لنر ياذا الجبة السوداء ، وليكن ما تريد . .

بعد الظهر سحبت ثلاث سفن مراسيها ، وأمخرت عباب البحر . شدت أشرعتها بالهوينى . ثلاثة تنينات تضيع وهي متجهة الى عرض البحر . ولكن الأمور تغيرت في الصباح الباكر . فجأة هاج البحر وعصفت الريح . غدت التنينات الثلاثة الضائعة في عرض البحر كقشرة بندق بين الموج . أدهشَ القديسَ موكتوس ما هو فيه . في البداية شعر بالدوار ، ثم فقد توازنه ، ثم صار يرتطم هنا وهناك ويتدحرج متكوراً ، ثم تقيأ .

كان البحارة أشباه الذئاب يتفرجون عليه وينحنون طاقين لشدة ضحكهم منه . في أثناء تدحرج القديس موكتوس إلى هنا وهناك وتقيؤه قال له القبطان القرصان :

ـ ياذا الجبة السوداء ، قلت لك إن هذه الرحلة ستكون مسلية . انظر إنك تسلينا بشكل جيد . .

كان موكتوس يئن وهو يقول :

ـ أنزلوني كرمى لله إذا كنتم تحبونه . أنزلوني إلى الشاطئ . .

قال القبطان القرصان :

ـ إذا أنزلناك إلى الساحل فماذا سيحدث للكفرة ؟ إذا ظهر الكفرة فمن سيمنحنا الجرأة ؟

ـ أنزلوني . .

ـ نرميك في البحر إن كنت تريد ، وهكذا تتخلص . .

جعل القديس موكتوس البحارة يمرحون كثيراً خلال اليومين بليلتيهما اللذين استمرت فيهما العاصفة . في صباح اليوم الثالث أصبح البحر منبسطاً كغطاء . الماء يحيط بهم من الجهات الأربع . اليابسة لا ترى . وبينما كانت الشمس تطلق أشعتها صرخ مراقب المقدمة :

ـ هيـ . . . . . . ـه ، سفيـ . . . . نة!

كانت ثمة سفينة شراعية تسير نحوهم . داعب القبطان القرصان شعرات صدره منبسطاً . وصرخ لرفاقه الشهوم :

ـ غزو جيد . سيروا نحوها! . .

سُر القديس موكتوس لوجود عمل له في النهاية . كان يتراكض من هنا إلى هناك ويهيّج البحارة في سبيل الدين . أنزلت أشرعة السفن الثلاث . وانهالت السياط على ظهور مائة قرصان مربوطين بالجنازير في قسم تحت مستوى سطح الماء . والتقط محكومو المجاديف مجاديفهم ، وسارت السفن الثلاث نحو الشراعية لكي يلتفوا حولها ويحاصروها ويسلبوا مالها ، ويأسروا رجالها . كان القديس موكتوس يطاير أطراف جبته ويذهب من هنا إلى هناك . يصعد مرة إلى السطح ، ثم ينزل إلى قسم محكومي التجديف عاملاً على تهييجهم قائلاً :

ـ في سبيل الدين يا أخوتي ، في سبيل الدين يا أخوتي . .

عندما كانت أطراف جبته تعيق حركة القراصنة ، كانوا يرفسون القديس موكتوس قائلين :

ـ انقلع من بين أقدامنا . .

كان القديس موكتوس لا يتوقف عن الصراخ حيث يتدحرج :

ـ في سبيل الدين يا أخوتي! . .

اتجهت السفن الثلاث نحوالشراعية لكنها لم تستطع بأي شكل إحكام الطوق عليها . كانت تنسل من بين التنينات الثلاثة من جهة ، وتقذف عليهم كرات اللهب من جهة اخرى . اشتعلت النار في إحدى السفن الثلاث . وبينما

كان القديس موكتوس يصرخ :

ـ هيا يا شهوم ، هيا يا أخوة الدين . . اليوم يومكم . . الرب ينظر إليكم من فوق . اصمدوا يا أخوتي . . أنهوا عمل الكافرين! . .

رفسه القبطان القرصان على مؤخرته عندما رأى أن أموره تسير نحو الأسوأ ، فصعدت روحه إلى أنفه ، فتدحرج القديس موكتوس على الدرج .

كانت كرات اللهب الملتاثة بالزيت تتساقط عليهم دون انقطاع . بعد هذا أمطرت عليهم سهام . بدأت تشتعل النار في السفينة الثانية . كان أخوته في الدين يتساقطون في البحر . سفينة القبطان القرصان الوحيدة الباقية على سطح الماء من السفن الثلاث . سارت الشراعية باستقامة نحو وسط سفينة القراصنة وصدمتها . قفز محاربوها إلى سفينة القراصنة . وبدأت معركة حياة أو ممات ، رأس لرأس ، وسيف لسيف . القديس موكتوس يقول :

ـ في سبيل الدين! . . اصمدوا يا شهوم! . . أنهوا الكافرين . . في سبيل الدين!

وضعف صوته بالتدريج ، وهرب من سطح السفينة إلى المراحيض .

عندما داهمه المحاربون في المراحيض كان يقول لنفسه :

ـ هيا يا أخوتي . . سيروا نحو الكفرة! . .

أسرت الشراعية الصغيرة سفينة ضخمة . ضُربت السلاسلُ على من فيها ، وربطتها إلى مؤخرتها وسارت بها إلى أحد الموانئ .

أغلقوا على القديس موكتوس باب إحدى الزنزانات . انتشر في بلده بسرعة خبر سقوطه في الأسر عند الكفرة . عندما علم الكفار بشهرة القديس موكتوس طلبوا مائة ألف فيلورين من أجل إطلاق سراحه . وكان المبلغ أكبر من إمكانية دفعه . الجميع مؤمن بالقديس موكتوس ، ولكن لأنه ما بيدهم حيلة ، صاروا يلطمون أنفسهم . كل شخص وضع ما يستطيع ، وجمعت النقود . ولكن أين ما جمع من المائة ألف فيلورين ؟ لم يُستطع جمع أكثر من عشرة آلاف فيلورين .

كان ثمة عاهرة من مدينة مسين تدعى كامينا . كان الرجال يصطفون عند باب دارها بالدور . كان أشجع الشجعان يرجع إلى الوراء خمسة عشر عاماً عندما يدخل حضنها . ليس ثمة من تفوقها عهراً . خربت بيوتا ، وأطفأت نيرانَ أخرى . الليلة التي كانت تعاني فيها من الوحدة ، تقضيها مع عشرين رجلاً على الأقل .

عندما علمت العاهرة المسينية كامينا بأسر القديس موكتوس ، أرسلت خبراً مفاده :

- إذاقَدَّمَ سنداً يتعهد فيه بالزواج مني سأدفع له المائة ألف فيلورين ، وأنقذ حياته! . .

كان القديس موكتوس مقيداً في زنزانة رطبة لا ترى النور في إحدى القلاع . ورُبطت قدماه بثقل كبير . عندما علم بخبر عاهرة مسين كامينا وقع السند وأرسله لها . سددت العاهرة المسينية المائة ألف فيلورين وأنقذت حياة القديس موكتوس . أطلق سراح موكتوس ، لكنه بعد إطلاق سراحه لم يعرّج على مسين ، ولم يف بوعده ، ولم يتزوج من كامينا . ورفعت كامينا دعوى إلى المحكمة ضد القديس موكتوس . وقال القديس موكتوس في المحكمة :

- السادة القضاة ، أنا رجل كامل الدين . وهبت روحي في سبيل الله . كيف أستطيع الزواج من امرأة خطاءة كهذه ، أطفأت حرارة كافة رجال الدولة تقريباً .

أخرجت كامينا السند من بين ثدييها المنتفخين ، وقدمته للقضاة ، وقالت :

- ها هو السند الذي أعطانيه ، إنه مضطر للزواج مني .

قال القضاة بعد أن قرأوا السند :

- أيها القديس موكتوس ، يا أبانا المحترم . نعلن آسفين أننا مضطرون لتطبيق القوانين ، فإما أن تتزوج هذه العاهرة ، أو سنلقي بك في السجن .

قولوا ما الذي تختارونه ؟

قال القديس موكتوس :

ـ سأتزوج .

ابتسمت كامينا المسينية للقديس موكتوس ، وغمزته قائلة :

ـ تعال إلى بيتي مساءً . أنا بانتظارك .

وذهبت .

عند المساء ذهب القديس موكتوس إلى بيت كامينا . كانت متمددة عارية تماماً على فراء نمر في صالة البيت . وكانت قد اندهنت بالعطور في كل مكان من جسمها الذي يشع نوراً . كانت تأكل فواكه وتشرب نبيذاً يقدمه لها عشرة رجال عراة تماماً مثلها . نظرت بعينيها الذابلتين إلى موكتوس وقالت :

ـ ماذا تريد يا أبانا المحترم ؟

قال القديس موكتوس :

ـ أتيت لكي أفي بوعدي .

أطلقت كامينا قهقهة ترددت أصداؤها في المكان . وقالت :

ـ هل صدقت بجد أنني سأتزوجك يا أبانا المحترم ؟ أنا أردت أن أفهم أي منا أكثر كفراً . وهل مائة ألف فيلورين كثيرة في سبيل توق كهذا ؟

وبعد أن قالت هذا ، رفعت مؤخرتها العارية من فوق فراء النمر ، وتناولت السند من تحتها ، وقدمته له ، وقالت :

ـ خذ وعدك هذا ، وانقلع من أمامي أيها الأب المحترم!

خرج موكتوس والسند بيده . شمشم السند المتعشقة فيه رائحة كامينا العاهرة ، وقبله ، ومسح وجهه فيه ، وسقط هناك ، حيث هو .

إلى الشرق كُر.. وإلى الغرب فُر..

كان في قديم الزمان دولة لم يدخل إليها الحساب ، ولا تعرف الجغرافية ، وضيعت التاريخ في غياهب النسيان . صار سكان تلك الدولة يتغيرون . بدأت رؤوسهم تغطس بين أكتافهم ، وتحدودب ظهورهم ، وتنحني خصورهم ، وإلقاءَ الخطو ما عادوا يستطيعون . لكنهم يمشون وأقدامهم يجرون . صار تغيرهم يتزايد من يوم إلى يوم ، وعندما صار كل الناس في هذه الحالة بدأوا يتشاكون :

ـ لم نعد نستطيع حملاً . .

ـ لم نعد نستطيع جراً . .

ارتفعت إلى السماء صيحات الألم للناس الذين غطست رؤوسهم بين أكتافهم ، وانحنت حتى وصلت إلى أحواضهم ، وما عادوا يستطيعون جَرَّ أقدامهم :

ـ لم نعد نستطيع جراً . .

ـ لم نعد نستطيع حملاً . .

تناهت هذه الأصوات إلى أذن رأس الإدارة ، فقال متسائلاً :

ـ من أين تنبعث هذه الأصوات النكراء التي تقض مضجعي ؟

قال المدراء الأدنى :

ـ يا مولانا هذه أصوات رعاياكم . كانت في البداية طنيناً فلم نصغ لها ،

بعد هذا أصبحت تأوهاً وتشكياً ، لم نعرها انتباهاً . فيما بعد أصبحت ضجيجاً ، فلم نشغل أنفسنا بها . لكنها مع الزمن زادت عن الحد . إذا تفضلتم بالأمر نقطع بعض حبالهم الصوتية ، فنحد من أصواتهم .

قال رأس الإدارة :

ـ مضى زمن طويل على العصر الوسيط . نحن الآن في العصر الجديد . إذا نظرتم إلى التقويم ستجدون أن اليوم الخميس . لايمكن أن نعيش الخميس كالأربعاء . ليجتمعْ الجميع غداً في الساحة الكبرى سأتكلم فيهم .

اجتمع الناس في الساحة الكبرى . دهش رأس الإدارة عندما رأى أمامه أناساً رؤوسهم مطأطئة وأكتافهم مهدلة ، وخصورهم ملوية . فتألم لهم ، وقال :

ـ و اخ ، واخ ، واخ . . ماذا جرى لكم ؟

كانوا يكررون دون توقف صارخين :

ـ لم نعد نستطيع جراً . .

ـ لم نعد نستطيع حملاً . .

استدعى رأس الإدارة بعض المسنين العاقلين منهم ، وسألهم :

ـ ما هذا ؟ احكوا لي! ما الذي لا تستطيعون جره ؟ احكوا بصراحة!

قالوا له :

ـ يا سيادة رأسَ إدارتنا ، حدث لنا ما لا نفهمه . كأن مطارق ، وكرات حديديةٌ ثقيلةٌ رُبطت بأقدامنا . . لم نعد تستطيع جر أقدامنا لنخطو . لم نعد نستطيع المشي . ومع الزمن يتزايد ثقل هذا الوزن غير المرئي الذي يشدنا إلى الأرض . إننا نخشى أن نتسمر مكاننا في يوم ما . ونغدو شجرة إنسانية .

قال رأس الإدارة :

ـ حسن ، فهمت . وما الذي لم تعودوا تستطيعون حمله ؟

قالوا له :

ـ كأن ثمة حملاً غير مرئي على ظهورنا . ومع كل يوم جديد يزداد هذا الحمل ثقلاً ، ويغدو على ظهورنا أكثر استقراراً . غاصت رؤوسنا بين أكتافنا ، وهجرتنا أضلاعنا ، ولم نعد نستطيع حمل أنفسنا .

لحظتئذ خاطب رأس الإدارة مالئي الساحة قائلاً :

ـ أيها المواطنون . لا تقلقوا أبداً . سيقوم الخاصة من علمائي بالبحث في الحمل غير المرئي المستقر على ظهوركم ، والثقل الذي يشد أقدامكم وستصبحون كما كنتم في الماضي تستطيعون الحمل والجر . .

انفض الجمع المالىء الساحة الكبرى فرحاً . وكل منهم يجرّ قدميه . وجمع رأس الإدارة الخاصة من علمائه في القصر ، وقال لهم :

ـ أنا أطعمكم على مدى كل هذه النسوات من أجل يوم كهذا . هيا لنر . لقد حل الزمن الذي ستدفعون لي فيه ولو جزءاً من دينكم . ابحثوا عن سبب عدم استطاعة شعبنا الجرّ والحمل . غير مهم ماستكتشفونه من أحمال وأثقال ، المهم أن يكون المكتشف لا يزعجني . هذه هي مهمتكم ، أليس كذلك ؟ هيا لنر ، اعملوا بما يناسب مطالبي ، وحولوا دون صراخ الشعب ، بالطرق العلمية .

قال الأربعون عالماً من الخاصة الذين يسكنون قصر رأس الإدارة :

ـ كما تأمرون يا سيدنا . إذا غذيتنا بأربعين كيساً من الفستق والعنب كل يوم ، طيلة أربعين يوماً ، سيتفتح ذهننا . وفي اليوم الأربعين سنبلغكم ، وبما يتماشى مع إرادتكم ، بالحمل الذي لم يعد يستطيع الشعب حمله ، والثقل الذي ما عاد يستطيع جره .

قال رأس الإدارة :

ـ ولكن في اليوم الأربعين ، إذا لم تقولوا ما يعجبني ، سأجعل كل واحد منكم قطعتين ، وأكثّركُم فأصنع منكم ثمانين عالماً . ضعوا هذا في عقولكم . . .

ولكي لايضيعوا الوقت أمر بوضع العلماء الأربعين في جناح من القصر ،

وأغلق عليهم الباب وقفله . وكل صباح تفتح الأبواب ، ويترك للأربعين عالماً أربعين كيساً من الفستق والعنب ، ثم تغلق الأبواب ، وتقفل مجدداً .

يأكل علماء القصر الفستق والعنب لكي تتفتح عقولهم . وكاد يطير صواب رأس الإدارة لصياح : «لم نعد نستطيع حملاً . لم نعد نستطيع جراً . .» ، الذي كان يقض مضجعه . فيذهب عدة مرات في اليوم وينظر من ثقب الباب ليرى ما يفعله الأربعون عالماً . . كان العلماء يأكلون الفستق والعنب بالحفنات ، ثم يلعبون (العُصَمَينة) و(التقلة) . كان رأس الإدارة يقول لنفسه : «إذا لم يكن علمكم يناسب إرادتي ، سأجعل كلاً منكم أربعين قطعة ، وأضع كل قطعة أمام أربعين كلباً مسعوراً ، وسترون . . . »

جاء اليوم الأربعون . أُخرج الأربعون عالماً من الجناح الذي أغلق عليهم . قال رأس العلماء لرأس الإدارة :

ـ يا مولانا عملنا أربعين يوماً ليلاً نهاراً ، وفكرنا ، وبحثنا . تعبنا كثيراً ، ولكن في النهاية وجدنا ماهية الحمل الذي يشكل عبئاً على شعبنا يا مولانا . شعبنا يستثقل ظله . لم يعد يستطيع الشعب حمل ظله . ظلال الناس لا تتركهم . لهذا السبب فهم لا يستطيعون الجري والسير كما كانوا فيما مضى . ولا يستطيعون الذهاب والإياب بسهولة . كلما شدتهم ظلالهم إلى أسفل ، يُسحقون وكأن على ظهورهم أحمالاً .

فرح رأس الإدارة وقال :

ـ وهل ثمة ما يماثل العلم . بلّغوا الشعب هذه النتيجة . أعداؤهم ظلالهم . إذا كانوا يريدون التخلص من أحمالهم ، والثقل المربوط بأرجلهم ، فليرموا عنهم ظلالهم .

أُبلغ الشعب بهذا الأمر . وفرح الشعب . ومنذ ذلك اليوم بدأت حرب ضروس بين الناس وظلالهم . جماعة منهم ، لكي يتخلصوا من ظلالهم ، ركضوا بكل طاقتهم ، ركضوا ، وركضوا ، ولكن لم يتخلصوا بأي شكل من ظلالهم . وعندما ينقطع نفسهم ، وينهارون في مكانهم ، ينظرون وإذ

بظلالهم مازالت عند أقدامهم . لم يستطع أحد الجري أسرع من ظله والتخلص منه . قيل إنهم كانوا يمتطون الجياد ويركبون السيارات ، ولكن مهما فعلوا فظلالهم لا تتركهم .

عندما يستيقظون في الصباح ، ينظرون إلى ظلالهم ، فإذا كانت على هذه الجهة ، يركضون بالاتجاه الآخر . ولأن ظلالهم تسقط غربهم من الصباح حتى الظهيرة ، يضعون ظلالهم خلفهم ويبدأون بالركض شرقاً . . وبعد الظهر تسبقهم ظلالهم ، وتبقى أمامهم حتى المساء . وهم من أجل أن يتخلصوا من ظلالهم يلتفتون إلى الخلف ، ويجعلون ظلالهم خلفهم ، ويركضون بلا توقف نحو الغرب . وهكذا يقضون كل أيامهم . وكل صباح عندما تشرق الشمس يقول عقلاؤهم :

ـ أيها المواطنون خلاصنا في الشرق . . لنوجه وجوهنا نحوالشرق ونركض .

إثر هذا يركضون كلهم سوية نحو الشرق . بعد الظهر تسبقهم ظلالهم ، وتصبح أمامهم . عندئذ يبرز بينهم عقلاء آخرون ، ويقولون :

ـ أيها المواطنون خلاصنا في الغرب . لنركض نحو الغرب! .

ومن أجل التخلص من ظلهم المشكِّل لهم حملاً وثقلاً يركضون مرة إلى الشرق ومرة إلى الغرب ، مرة من الشرق إلى الغرب ، ومرة من الغرب إلى الشرق . ولكن على الرغم من كل ما فعلوه فلم يتخلصوا من حِمل ظهورهم ، ومن ثقل أقدامهم .

بعض العقلاء يصرخون صباحاً :

ـ لنركض نحو الشرق يا مواطنين!

عقلاء آخرون يقولون :

ـ كل هذه السنوات ونحن نركض نحوالشرق ، لكننا لم نتخلص من ظلالنا . إننا نذهب في طريق خاطىء . إذا أردنا أن نتخلص من ثقل ظلالنا فعلينا أن نركض نحوالغرب!

هذه المرة يقول آخرون :

ـ عودوا إلى الغرب ، ولتسبقكم ظلالكم ، عندها سترون ما سيحدث لكم . ولكن الآخرين لايسكتون ، إذ يقولون :

ـ هذا لأننا لا نركض بسرعة . لو ركضنا بسرعة سنسبق ظلالنا ، ونتخلص من الحمل الذي نحمله ، والثقل الذي نجره .

وبعد الظهر تسبقهم ظلالهم مجدداً ، وعندما يلتفتون الى الغرب ويركضون في الطريق المعاكس ، كان يصرخ العقلاء الذين اقترحوا الذهاب شرقاً :

ـ لا تعودوا إلى الغرب! إذا ركضنا بسرعة أكبر نحو الشرق سنتجاوز ظلالنا . .

لهذا السبب فقد بدأ نقاش ، وجدال لا نهاية لهما بين عقلاء وعلماء تلك الدولة . لم يستطيعوا الاتفاق بأي شكل على أية من الجهتين ، الشرق أم الغرب التي إذا ركضوا نحوها فسيتخلصون من ثقل ظلالهم . قال مجموعة من العقلاء الذين فهموا منذ سنوات عديدة أنه لا يمكن التخلص من الظلال بالجري على هذا النحو ، من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق :

ـ أيها المواطنون! الحالتان خاطئتان . يجب ألا نذهب نحو الشرق أو نحو الغرب . . . الحالة الأفضل هي إيجاد المكان الذي يتوسط الشرق والغرب تماماً ، ونقف هناك .

وهذا أيضاً جربوه . عندما تصغر ظلالهم ظهراً كانوا يفرحون قائلين :

ـ الله! ها نحن نتخلص من ظلالنا . .

ولكن مهما صغرت الظلال ، وقصرت ، لا تزول نهائياً ، وبالتالي فإنهم لا يتخلصون من ظلالهم نهائياً . لأنه عندما يمر وقت الظهيرة ، تبدأ ظلالهم بالكبر ، والتطاول مجدداً . وحتى إنه قيل عن بعض هؤلاء كانوا يهربون إلى الغرب لكي يتخلصوا من ظلالهم .

وبينما يستمر النقاش ، ويتصاعد بين القائلين الى إلغرب ، والقائلين

إلى الشرق ، والقائلين لا إلى الغرب ، ولا إلى الشرق ، تعب الناس من الركض إلى هذه الجهة ، وإلى تلك ، ومن تصادمهم في أثناء الركض ، فبدأوا بالصراخ مجدداً :

ـ لم نعد نستطيع حملاً! . .

ـ لم نعد نستطيع جراً! . .

وكان رأس الإدارة لتلك الدولة يقلق من أصداء الأصوات المرتدة عن جدران القصر ، فقال صارخاً :

ـ ما هذا الضجيج ؟ لا أستطيع النوم!

قال المدراء الأدنى :

ـ يا مولانا هذا صراخ الناس الذين يركضون نحو الغرب والذين يركضون نحو الشرق ، والذين يقفون في أمكنتهم ولم يتخلصوا من ظلالهم بأي شكل من الأشكال . .

استدعى رأس الإدارة الأربعين عالماً من خاصته ، وقال لهم :

ـ أروني معرفتكم . أنا لا أطعمكم دون سبب . . خلّصوا الناس من ظلالهم! بحيث لا يخرج صوت أحدهم بعد هذه اللحظة . .

قالوا :

ـ أمركم على الرأس . إذا غذيتنا بأربعين كيساً من الفستق والعنب كل يوم ، طيلة اربعين يوما ، سيتفتح ذهننا ، وفي اليوم الأربعين سنجد الطريقة التي سيتخلص الناس بواسطتها من ظلالهم ، وبما يتناسب مع إرادتكم .

وأغلق رأس الإدارة أحد أجنحة القصر على الأربعين عالماً من خاصته ، وأقفل عليهم الباب . وكان يمنح الأربعين عالماً ، أربعين كيساً من الفستق والعنب كل صباح ، وتغلق الأبواب عليهم مجدداً . وكان يتجسس عليهم رأس الإدارة من ثقب مفتاح الباب لإشباع رغبته بالفضول حول ما يفعلون . كان الأربعون عالماً يأكلون الفستق والعنب ، ويلعبون (العصّمينة) ، و(التقلة) فتحت الأبواب في اليوم الأربعين ، وقال رأس العلم :

ـ أكلنا الفستق والعنب وتفتحت أذهاننا . ووجدنا على ضوء العلم ، وبما يناسب إرادتكم ، كيف سيتخلص الناس من ثقل ظلالهم .

قال رأس الإدارة متسائلاً :

ـ كيف ؟ . .

قال رأس العلم :

ـ يا مولانا . إنهم يتخلصون من ظلالهم ليلاً . هذا يعني أن الظل لا يعيش في الظلام . من أجل أن تتخلص الجماهير من ظلالها ، يجب أن يصبح الوقت ليلاً .

سأل رأس الإدارة غاضباً :

ـ ماذا سيحدث في النهار ؟

قال رأس العلم :

ـ نصبغ النهار بالظلام . نعمل سقفاً يغطي كل جانب بحيث لا يدع مجالاً لدخول ضوء النهار . ثم نرمي الذين يصرخون : «لم نعد نستطيع حملاً . . لم نعد نستطيع جراً» إلى هذا المكان المظلم المغلق . عندما يتركون ظلالهم خارج الباب ، ويدخلون تحت السقف المظلم ، سيتخلصون في الوقت نفسه من ثقل ظلالهم .

أمر رأس الإدارة بإنشاء المكان المظلم ، والذي لا ثقب فيه بمقدار رأس دبوس ، ولا يُدخل ضوء النهار . وكانوا يلقون القبض على كل من يصرخ : «لم نعد نستطيع حملاً . . لم نعد نستطيع جراً .» ، ويلقونه في ذاك المكان المظلم بعد أن يترك ظله عند الباب . وينقطع صوت الذين يصبحون دون ظل .

كانوا يجردون الصارخ من ظله ، ويلقون به في الداخل ، ويتركون ظله في الخارج . أصبح في الخارج ظلال ، وفي الداخل أناس لا ظل لهم . شعروا بضيق المكان المظلم ، فوسّعوه . مرة اخرى شعروا بضيقه فوسعوه مجدداً . وهكذا أغلقت تلك الدولة من كل جوانبها ، ومن أعلاها ، وأصبحت كلها

تحت سقف مظلم . بقي في الخارج مكان ضيق جداً مشمس . وفي هذه الأمكنة ، كان يتواجد رأس الإدارة ، والإدارة ، وشخصيات القصر ، وعلماؤه ، وكثير جداً من ظلال الذين ألقي بهم تحت السقف المظلم . كانت هذه الظلال تزول ليلاً . وتزحف على الأرض في النهار . ولأن هذه الظلال قامت بدور ظلال للبشر ، ورافقتهم ، تشكلت بشكلهم ، وأصبحت مثلهم . لكنها لا تستطيع بأي شكل النهوض على الأقدام ، وتزحف دائماً على الأرض . وغير هؤلاء ، ثمة بعض الناس الحقيقين ، ولكن لخوفهم من القبض عليهم ، وإلقائهم تحت ذاك السقف فلا يصرخون : «لم نعد نستطيع حملاً . . لم نعد نستطيع جراً» ، ولا ينبسون . وإذا استدعوا إلى التحقيق أحياناً ، وحتى إذا لم يستدعوا ، ولأن للحيطان آذاناً ، وخشية من سماع الظلال ، وإخبار رأس الإدارة ، يقولون :

ـ تعودنا . . نجر . . ونحمل .

لم يُسمع بعد ذلك اليوم ضجيج ، وصياح ، ونداء : «لم نعد نستطيع حملاً . . لم نعد نستطيع جراً . .» في تلك الدولة . ولم يعد رأس الإدارة يقلق في أثناء نومه .

تِرِيْ.. لِيْ.. لَمْ

كان يا ما كان . . لا ندري إن كان في العصور القديمة ، أم الوسطى ، أم الجديدة ؟ كان في مجهول الزمان . . كان يوجد دولة مجهولة في هذه الدنيا المعروفة . جائعو هذه الدولة أكثر من شبعيها ، مفكروها أقل من ثرثاريها . أغنياؤها يشكون الفقر . رؤوسهم مطأطئة على صدورهم . وأبصارهم موجهة إلى داخلهم ، وقلوبهم محجوبة عما يدور حولهم .

على رأس هذه الدولة شخص يلقب «الرأس الأكبر» . لا أحد في الدولة يخرج على طاعته ، وهذا ما يورّثه الأب لابنه .

ازدادت أوامر «الرأس الأكبر» ، ولم تعد تعرف لها نهاية . أصبح سكان تلك الدولة لا يحتملون أوامره المتزايد عددها ، والتي قست طبيعتها . ومن جهة أخرى ، لا يعرفون كيف يتصرفون في هذه المواقف التي لم يعودوا يستطيعون احتمالها . ازدادت أوامر «الرأس الأكبر» إلى أقصى حد لها . ومع هذه الضغوط بدأوا يفكرون قائلين لأنفسهم : «ماذا نفعل إزاءها ؟» . خرج عرافة منهم وقال في موضوعها :

ـ نبحث في تراثنا . ولنر ما كان يفعله أجدادنا عندما كانت أوامر «الرأس الأكبر» تقسو ، وتزداد ، ولنفعل مثلهم .

وجدوا نصيحة العارف مناسبة . بحثوا في تاريخهم . وجدوا أن أجدادهم كانوا يقطبون حواجبهم ، ويعبسون عندما تقسو أوامر «الرأس الأكبر»

ويزيد الضغط بقبضته على الشعب .

بداية ، فرحوا لأنهم استنبطوا من تراثهم درساً مفيداً أمام ضغوط الرأس الأكبر التي لا تحتمل ، ولا تطاق . قالوا : «ليس أمامنا سوى تقطيب الحاجبين ، والعبوس! » ، وقطبوا حواجبهم وعبسوا . ولكن هذا لم يخفف ضغوط الرأس الأكبر ، بل على العكس ، استمرت في الازدياد . وكلما ازدادت الضغوط ، ازدادت حواجبهم تقطيباً ، وعبوساً . قطبوا حواجبهم ، وعبسوا ، ثم زادوا من التقطيب والعبوس ، إلى أن وصلت حواجبهم إلى حد لم تعد فيه تقطب ، ووجوههم لم تعد فيه تعبس . لم يبق في وجوههم موضع خط أو شعرة دون عبوس أو تقطيب . أصبحت الدولة دولة المقطبين ووطن العابسين . مرت الأيام ، ودارت الأسابيع ، نسي الناس في تلك الدولة الضحك والفرح .

لم يعد فيهم من يتذكر الضحك ، ويعرف كيف يضحك الإنسان .

خرج واحد منهم ، قائلاً :

ـ نحن أغلقنا على أنفسنا . ولانعرف ماذا يجري خارج دولتنا . . لنختر ثلاثة مثقفين شبان من بيننا ، ولنرسلهم سراً إلى ثلاث مناطق مختلفة . وليبحثوا كيفية تصرف الناس هناك أمام الأنظمة القمعية . وليأتوا ويشيروا علينا ونحن ننفذ .

لاقت الفكرة قبولاً واستحساناً . اختاروا ثلاثة مثقفين شباناً . هرّبوا الشبان الثلاثة سراً ، دون علم الرأس الأكبر إلى ثلاث دول .

بقي الشبان الثلاثة في الدول الأجنبية الثلاث ، سنوات ثلاث . حققوا فيما يفعله المواطنون هناك ، ثم عادوا إلى وطنهم . اجتمع الناس بهؤلاء الشبان ، وسألوهم :

ـ ماذا رأيتم احكوا لنا . .

قال الشاب الأول :

ـ لم أجد مقطب حاجبين في المكان الذي ذهبت إليه . الناس هناك

يضحكون ويقولون : «تري لي لم . . تري لي لم» . ونحن إذا أردنا التخلص من ظلم الرأس الأكبر ، علينا أن نقول : «تري لي لم . . تري لي لم» ونضحك ، ونرقص .

حكى الشاب الثاني على النحو التالي :

ـ وأنا أيضاً لم أصادف أي عابس في المكان الذي ذهبت إليه . الناس الذين يعيشون في تلك الدولة يضحكون ويقولون : «لي ، لم ، تري . . لي لم تري» ونحن إذا أردنا التخلص من ظلم الرأس الأكبر . علينا أن نصرخ قائلين .«لي لم تري . . لي لم تري» ونضحك ، ونمرح .

ما قاله الشاب الثالث :

ـ في المكان الذي ذهبت إليه لم يكن ثمة عابسون . الذين يعيشون هناك يقولون : «لم ، تري ، لي . . لم تري لي» ويضحكون . إذا أردنا أن نتخلص من أوامر الرأس الأكبر التي تزداد قسوة ، ولم تعد تحتمل ، علينا أن نقول : «لم تري لي . . لم تري لي» ونضحك .

ـ صحيح ، ولكن كيف نضحك دون أن نعرف معنى ما تقولون ؟ ألم تعرفوا معنى هذه التري ليلات ؟

قال الشاب الأول :

ـ وهذا ممكن هذا . . أنا لم أذهب فارغاً وعدت كما كنت . معنى «تري لي لم» هو : «يسمى نباح الكلب على كل شخص ما عدا صاحبه ، عندما يكون هذا النباح بدرجة صوت واحدة ولحن واحد : تري لي لم» .

حكى الشاب الثاني على النحو التالي :

ـ أما عن معنى «لي لم تري» ، فهو عندما نضع الذهب في كفة ميزان ، والبحص من الوزن نفسه تماماً في الكفة الأخرى ، ويصبح مؤشرا الميزان منحنياً بعضهما أمام بعض باحترام يطلق على هذه الحالة : «لي لم تري»

وما قاله الشاب الثالث :

ـ حول معنى «لم تري لي» : تسمى عملية التفريق بين العبد ، وسيده

عندما يخلعان ثيابهما في الحمام : لم تري لي »

قال كل من كان هناك :

ـ سعدنا لتعلمنا هذا . ليعمل المثقفون على شرح هذه المقولات للناس . ونحن أيضاً لنقل كما يقولون في الدول الأخرى : «تري لي لم ، لي لم تري ، لم تري لي » ونضحك ، ونفرح . تفرق المثقفون الثلاثة ، وغاصوا بين الناس ، وعملوا كما اتفق .

ـ تري لي لم . .

ـ لي لم تري . .

ـ لم تري لي . .

كلما تعالت الأصوات نحو السماء ، بدأت الوجوه العابسة بالابتسام ، والمقطبة بالارتخاء . كان ينبعث من كل مكان ، وكل بيت ، وكل ساحة صوت يقول : «تري لي لم . . لي لم تري . . لم تري لي» . عندما سمع الرأس الأكبر بهذا قطب حاجبيه وعبس وجهه . وقيل إنه كان يغضب كثيراً لهذه الأصوات . سد أذنيه فما استفاد . جلس خلف جدران سميكة فما نفع . لم يستطع التخلص بأية طريقة من هذه الأصوات التي باتت تهز الأرض والسموات . كلما ازداد ضحك المواطنين ، كان يزداد وجه الرأس الأكبر عبوساً . وكلما انفرجت أساريرهم كلما ازداد وجهه تقطيباً . عبس وقطب ، وعبس إلى أن غدا في وضع لم يعد فيه يستطيع أن يزيد من العبوس والتقطيب . عندها أصدر أمراً جديداً مفاده :

« يمنع الصراخ بقول تري لي لم . . لي لم تري . . لم تري لي . ومن سيصرخ هكذا سيسجن مدة عشر سنوات! . . »

لكن الشعب تعود على الصراخ والضحك إلى حد أنه لم يهتم لهذا القرار . ولكن الناس كانوا يصرخون جميعاً في آن واحد . لم يستطع الرأس الأكبر تحديد من سيلقي القبض عليه ، ويسجنه . زاد العقوبة :

ـ سيعدم الضاحكون رمياً بالرصاص .

لم يفعل هذا التخويف فعله .

إثر هذا فكر الرأس الأكبر بحيلة ذكية . استدعى إلى القصر المثقف الذي علم الشعب التري لي لم . وقال له :

ـ أنا سعيد جداً لسماع أصوات التري لي لم . أنتم تظنون أنني ضدها . من قال هذا ؟ . . من المؤكد أنه يجب على الشعب أن يقول تري لي لم ، ويجب أن تضحك وجوه الناس . ولكن لي عندكم رجاء . إذ أن تعريف التري لي لم طويل جداً . إن شعبنا لا يسطتيع حفظ الجمل الطويلة إلى هذا الحد . يا ترى ، ألا يمكن لكم حذف عبارتين من التعريف ، من أجل تسهيل الأمر على الشعب فقط ؟ ومقابل هذه المهمة سأخصص لكم مائتي ليرة ذهبية شهرياً من النفقات المستورة .

اقتنع المثقف بهذا الاقتراح . فقال :

ـ حسن . .

إثر هذا ، صار يردد التعريف للناس بعد حذف عبارتين منه قائلاً :

ـ يسمى نباح الكلب على كل شخص ما عدا صاحبه تري لي لم . .

استدعى الرأس الأكبر المثقف الثاني . وقدم له بعض المقدمات ورجاه أن يحذف عبارتين من تعريف اللي لم تري . وهذا لأن الشعب لا يستطيع حفظ عبارات بكل هذا الطول . فوافق هذا أيضاً مقابل تخصيص مبلغ مائتي ليرة ذهبية شهرياً . وصار يعرف للناس اللي لم تري على النحو التالي :

ـ انحناء مؤشري الميزان بعضهما لبعض عندما نزن الذهب والبحص . .

خدع الرأس الأكبر المثقف الثالث . وهذا أيضاً ، مقابل مائتي ليرة ذهبية قال للناس :

ـ خلع العبد وسيده ثيابهما في الحمام يسمى لم تري لي . .

ولكن بقي الناس يتضاحكون قائلين : «تري لي لم . . لي لم تري . . لم تري لي . .» ، ولكن لم يكن الضحك كما كان عليه في السابق . نقص

الضحك بمقدار عبارتين . ولم يعد وجه الرأس الأكبر عابساً كما كان في الماضي . فقد نقص العبوس عما كان عليه في السابق بمقدار عبارتين .

استدعى الرأس الأكبر المثقف الأول مرة أخرى وقال له :

ـ ألا نستطيع اختصار عبارتين أخريين ؟ مرادي أن يتعلم شعبي التعريف بشكل أسهل . وسأخصص لك من بند النفقات المستورة مائتي ليرة ذهبية إضافية .

قال المثقف :

ـ حسن . .

ووافق المثقف الثاني والثالث أيضاً .

أصبحت التري لي لم : نباح الكلب . .

واللي لم تري : وزن الذهب والبحص .

واللم تري لي : خلع الثياب في الحمام .

بقي الناس يتضاحكون قائلين : «تري لي لم . . لي لم تري . . لم تري لي . .» ولكن لم يكن الضحك كما كان عليه في السابق . . وبالمقابل ضحك وجه الرأس الأكبر بشكل أفضل .

استدعى الرأس الأكبر المثقفين الثلاثة فرادى إلى القصر ، وقال لكل منهم :

ـ أريد أن أسهل الأمر على الشعب . ألا يمكن حذف التعريف بشكل كامل والإبقاء على «تري لي لم . . لي لم تري . . لم تري لي . .» ؟ إنكم تفهمونني أليس كذلك ؟ ما أريده التسهيل على الشعب . ومقابل مهمتكم هذه سأخصص من بند النفقات المستورة لكم مائتي ليرة ذهبية إضافية شهرياً .

وجد المثقفون هذا الاقتراح معقولاً . . ومع اختصار العبارات من التعريف لم يبق أية كلمة . بقي : «تري لي لم . . لي لم تري . . لم تري لي . .» فقط .

لم يعد الناس يعرفون معنى هذه الكلمات ، وازدادت وجوههم عبوساً ، حتى إن الذين يعيشون في تلك الدولة أصبحوا أكثرتكشيراً مما كانوا عليه قديماً . وبينما كان الرأس الأكبر يكاد أن يموت من الضحك ، كان الناس العابسون ، المكشرون يصرخون ويرددون ، دون إدراك لما يعنون :

ـ تري لي لم . .

ـ لي لم تري . .

ـ لم تري لي . .

وهكذا أصبح الناس في تلك الدولة يصرخون منذ ذلك اليوم : «تري لي لم . . لي لم تري . . لم تري لي . .» من جهة ، والرأس الأكبر يستمتع بطعم الحياة من جهة أخرى .

ـ تري . .

ـ لي . .

ـ لم . .

لنتقدم، لننهض، لنسمو

أليست هذه حكاية . . ما دامت كذلك فسنبدأ القول : «كان ياما كان» . لو لم تكن حكاية وكانت خطبة ، كنا سنبدأ الكلام : «أيها المواطنون» . لكل حديث بداية خاصة به .

نعم ، كان ياما كان . . وبعد ؟ «كان في قديم الزمان ، كان الغربال في التبان ، وجني وأنسي بالكرة يلعبان ، وبناء حمام خربان . . »

إن هذه التي نسميها حكاية تبدأ دائماً بالسجع . . إنه سجع لركام من الكلمات . . كلمات لا معنى لها رُصِفَ بعضها وراء بعض .

حسن ، وماذا حدث بعد هذا ؟ بعد ذاك ؟ لأقلْ يا سيدي ، كان ثمة دولة على هذه الأرض . الدول كثيرة على سطح الأرض ، ولكن الحكاية التي سنحكيها لكم تجري في هذه الدولة .

كان ثمة دولة على هذه الأرض . كان بين سكان هذه الدولة ثلاثة أشخاص . فكر هؤلاء ثم قالوا : «لنذهب ونسُحْ في دول أخرى ، ولنر ماذا يوجد هناك» . وفعلوا ما فكروا به . ذهبوا إلى الدول الأخرى ، وساحوا فيها . عندما عادوا إلى دولتهم قال أحدهم :

ـ أنا تعلمت شيئاً جديداً في الأمكنة التي زرتها .

سألوه :

ـ ماذا تعلمت ؟

قال :

ـ تعلمت قول : «لنتقدم ، لنتقدم»

قال له مواطنوه :

ـ صحيح لنتقدم ياه . .

قال الرحالة الثاني :

ـ وأنا تعلمت شيئاً جديداً في الأمكنة التي زرتها . .

سألوه :

ـ ماهو ؟

قال :

ـ لننهض . لننهض . . هذا ما تعلمته .

قال له مواطنوه :

ـ صحيح ، لننهض ياه . .

قال الرحالة الثالث :

ـ وأنا أيضاً تعلمت شيئاً جديداً في الأمكنة التي زرتها .

سألوه :

ـ ماذا تعلمت ؟

ـ لنسمو ، لنسمو . . هذا ما تعلمته .

ـ صحيح جداً . لنسمو ياه . .

منذ ذلك اليوم أصبح الناس عندما يحادث بعضهم بعضاً يقولون : «لنتقدم» ، «لننهض» ، لنسمو» . ومع السنين اعتاد الناس على هذه الكلمات لكثرة تكرارها حتى أصبحت تستخدم بدل السلام ، ونُسيت كلمات : «مرحبا ، أهلاً وسهلاً ، صباح الخير ، مع السلامة ، أستودعك الله» .

عندما يلتقي صديقان في الطريق يقول أحدهما للآخر :

ـ لنتقدم .

يرد عليه الآخر :

ـ لنتقدم ، لنتقدم . .

عندما يتعارف شخصان ، ويصافح كل منهما الآخر ، يقول الأول :

ـ لننهض . .

يهز الآخر يد المصافح الأول قائلاً :

ـ لننهض ، لننهض .

ويلوح الأصدقاء من المودعين لصديقهم الذي يركب السفينة ، ويصرخون :

ـ لنسمو!

ويلوح الذي في السفينة بمنديله منادياً :

ـ نعم ، لنسمو ، لنمسو . .

وهكذا مرت السنون في تلك الدولة . وفي يوم من الأيام ، ذهب ثلاثة أشخاص من تلك الدولة لكي يسوحوا في دول أخرى . وعندما عادوا قال أحدهم لمواطنيه :

ـ أنا تعلمت شيئاً جديداً في الأمكنة التي ذهبت إليها .

سألوه قائلين :

ـ ماذا تعلمت ؟ . .

قال :

ـ من غير الممكن قول : «لنتقدم ، لنتقدم» ... وما تعلمته قول : «يجب أن نتقدم» .

قال مواطنوه :

ـ صحيح ، صحيح جداً ، من غير الممكن قول : «لنتقدم ، لنتقدم» . . يجب أن نتقدم .

قال الرحالة الثاني :

ـ وأنا أيضاً تعلمت شيئاً جديداً في الأماكن التي ذهبت إليها .

سألوه قائلين :

ـ ما الذي تعلمته ؟

قال :

ـ من غير الممكن قول وتكرير : «لننهض ، لننهض» . . بل ، يجب أن ننهض ، هذا ما تعلمته .

قالوا له :

ـ صحيح ، لا يمكن النهوض بقول : لننهض ، لننهض . . بل يجب أن ننهض .

قال الرحالة الثالث :

ـ وأنا أيضاً تعلمت شيئاً جديداً . .

سألوه :

ـ ما هو ؟

ـ من غير الممكن قول : لنسمو ، لنسمو . . بل يجب أن نسمو ، هذا ما تعلمته .

قال مواطنوه :

ـ في الحقيقة لا يكفي قول : لنسمو ، لنسمو . . ولكن يجب أن نسمو .

منذ ذلك اليوم بدأوا بترديد الكلمات الجديدة . عندما يلتقي صديقان في الطريق يقول أحدهما للآخر .

ـ لننهض!

يرد عليه الآخر .

ـ يجب علينا أن ننهض!

عندما يلتقي صديقان لم يركل منهما الآخر منذ مدة طويلة في مكان ما ، ويتعانقان ، يقول أحدهما للآخر :

ـ لننهض ، لننهض .

والآخر يجيب :

ـ يجب أن ننهض ، يجب أن ننهض .

والذين يذهبون لزيارة الأصدقاء أو الأقارب يقولون لأصحاب البيت :

ـ يجب أن نسمو!

ويقول صاحب البيت لضيوفه :

ـ نعم ، يجب أن نسمو ، يجب أن نسمو!

إثر هذا مرت كثير من السنوات ، وراح زمن ، وأتى زمن ، ذهب ثلاثة أشخاص من تلك الدولة إلى دول أخرى ليروا مافيها . وعند عودتهم قال أحد الأشخاص الثلاثة :

ـ أنا تعملت شيئاً جديداً في الأماكن التي ذهبت إليها .

سألوه قائلين :

ـ ما هو ؟

ـ من غير الممكن الاكتفاء بقول : «يجب أن نتقدم ، يجب أن نتقدم» . . يجب أن نتقدم ، ولكن كيف يجب أن نتقدم ؟ هذا ما تعلمته .

قال مواطنوه :

ـ كلام مناسب . يجب أن نتقدم ، ولكن كيف يجب أن نتقدم ؟

قال الرحالة الثاني :

ـ وأنا أيضاً تعلمت شيئاً جديداً في الأماكن التي ذهبت إليها . .

سألوه قائلين :

ـ ما الذي تعلمته أنت ؟

ـ لا يمكن النهوض بقول يجب أن ننهض . ما تعلمته هو سؤال : كيف يجب أن ننهض ؟ قال مواطنوه :

ـ صحيح ، من غير الممكن الاكتفاء بقول : «يجب أن ننهض ، يجب أن ننهض . بل علينا أن نسأل : كيف يجب أن ننهض ؟

قال الرحالة الثالث :

ـ وأنا تعلمت شيئاً جديداً .

ـ ما هو ؟

ـ لا يمكن الاكتفاء بقول : يجب أن نسمو . تعلمتُ سؤالَ : كيف يجب أن نسمو ؟ قال له مواطنوه أيضاً :

ـ صحيح جداً . من غير الممكن الاكتفاء بقول يجب أن نسمو . علينا أن نقول : كيف يجب أن نسمو ؟

ومنذ ذلك اليوم إذا دخل شخص إلى القهوة في تلك الدولة ، فيقول ذلك الشخص للجالسين فيها :

ـ لنتقدم . .

فيقول له من في القهوة :

ـ يجب أن نتقدم .

فيرد عليهم متسائلاً :

ـ كيف يجب أن نتقدم ؟

والأزواج عندما يستيقظون في الصباح يقولون لزوجاتهم عند خروجهم إلى عملهم :

ـ لننهض .

وبعد أن ترد الزوجات على أزواجهن :

ـ يجب أن ننهض .

يلوح الأزواج بأيديهم قائلين :

ـ كيف يجب أن ننهض ؟

ويهبطون الدرج .

ويقول الأطفال لأمهاتهم عندما يذهبون إلى النوم ليلاً .

ـ لننهض ياماما

وعندما ترد عليهم أمهاتهم :

ـ يجب علينا أن ننهض يا صغاري

يقول الأطفال لأمهاتهم :

ـ كيف علينا أن ننهض يا ماما ؟

ثم يقبّلون أيديهن ، ويتمددون في أسرتهم .

لم يسقط سكان تلك الدولة هذه الكلمات عن ألسنتهم لسنوات طويلة . راحت السنون ، وعادت أخرى . ثم خرج ثلاثة أشخاص من تلك الدولة إلى دول أخرى ، وساحوا فيها ، ثم عادوا إلى وطنهم . قال أحدهم :

ـ أنا تعلمت شيئاً جديداً في الأمكنة التي ذهبت إليها .

سأله مواطنوه قائلين :

ـ ما هو ؟

فأجاب على النحوالتالي :

ـ ماتعلمته هو عدم الاكتفاء بسؤال كيف يجب علينا أن نتقدم ، بل يجب أن نفكر كيف سنتقدم .

قالوا له :

ـ صحيح ، يجب عدم الاكتفاء بالسؤال . . يجب أن نفكر كيف سنتقدم . .

قال الثاني :

ـ وأنا تعلمت شيئاً جديداً . .

سألوه :

ـ ما هو ؟

ـ لا يمكن النهوض بسؤال كيف يجب أن ننهض ، بل يجب التفكير بكيفية النهوض . .

قال له مواطنوه :

ـ صحيح لا يمكن النهوض بسؤال كيف يجب أن ننهض ، يجب التفكير بكيفية النهوض . .

قال الرحالة الثالث :

ـ وأنا تعلمت شيئاً جديداً . لا يمكن السمو بسؤال : كيف يجب أن نسمو . بل يجب التفكير بكيفية السمو . . هذا ما تعلمته .

قال مواطنوه :

ـ صحيح جداً ، يجب التفكير بكيفية السمو .

ومنذ ذلك اليوم لم يعد أحد في تلك الدولة يسأل الآخر : « كيف حالكم ، هل أنتم بخير ؟ » ولاأحد يجيب : « الحمد لله ، شكراً لكم » . بدلاً من هذا يقول الشخص الذي يلتقي الآخر :

ـ لنتقدم ، لنتقدم . .

ـ يجب أن نتقدم ، صحيح ، يجب أن نتقدم .

ـ لا يكفي قول يجب أن نتقدم ، علينا أن نقول : كيف يجب أن نتقدم ؟

ـ كيف يجب أن نتقدم ؟

ـ لا يمكن التقدم بقول كيف يجب أن نتقدم ، بل يجب أن نفكر كيف سنتقدم . .

تمد النساء رؤوسهن من شبابيك بيوتهن ، ويتحادثن على النحو التالي :

ـ هيه . . يا جارتنا ، لننهض .

ـ هيه . . يجب أن ننهض ، يجب أن ننهض .

ـ لا يكفي قول يجب أن ننهض ، عليك أن تسألي : كيف يجب أن ننهض ؟

ـ ولا يكفي السؤال أيضاً ، يجب التفكير بكيفية النهوض . .

عندما يدخل المعلمون إلى صفوفهم كل صباح ، يقولون لتلاميذهم :

ـ لننهض ، لننهض يا أولاد!

ويجيب الأولاد :

ـ يجب أن ننهض يا أستاذ ، يجب أن ننهض .

ـ لا يكفي قول يجب أن ننهض . يجب علينا أن ننهض ، ولكن كيف يجب أن ننهض ؟

فيرد التلاميذ :

ـ لا يتم هذا بسؤال كيف يجب أن ننهض . بل يجب أن نفكر كيف سننهض ياأستاذ . .

وبعد طقوس التحية هذه يبدأ المعلمون الدرس .

مر زمان ، وعاد زمان . خرج ثلاثة أشخاص من تلك الدولة...

إيـ . . . . . ـه ، هل ستدوم الحكاية هكذا ؟ أليس لهذه الحكاية نهاية ؟ . . نعم . . ما هي نهايتها ؟ قُلْها! . . نهاية هذه الحكاية مثل نهاية كل الحكايات : هم نالوا مرادهم ، ولنتمدد نحن على أسرتنا . .

نحن معشر الإنسان

كان يا ما كان ، في جديد الوقت ، وقديم الزمان ، في الخلف والأمام ، في السابق واللاحق ، في الأمس والغد ، قبل ولادتي وبعد موتي على هذه الأرض في مكان ، كان ثمة مدينة ، وثمة بيت من بيوت هذه المدينة . ليكن من يقرأ هذه الحكاية ، أو يحكيها ، أو يسمعها في أي قرن كان ، وليكن في أي مكان كان ، فهذه المدينة موجودة في ذلك القرن ، وذلك المكان . وجرت هذه الحكاية في تلك الدولة . ومهما كانت لغة الذين قرأوا هذه القصة من قبلي ، أو سيقرؤونها من بعدي ، فمن يعش في تلك الدولة يتكلمْ تلك اللغة .

جرى ما جرى في الساعة الثامنة من ذاك الصباح عندما استيقظ رجل ذلك البيت . استيقظ ذلك الرجل وهو يدلك عينيه ويتمطى . نظر ، وإذ برأس مخيف يستند على المخدة التي يضع رأسه عليها . كان الرأس لوحش لم ير مثله ، ولم يسمع عنه . حفرت فيه عينا جاموسة كبيرتان في أعلى الجبين . وثمة أنف خنزيري لذاك الرأس يسحب الهواء وينفثه كمنفاخ . أذناه أذنا حمار . وبرز من تحت اللحاف مخلب نسر مكبّر مائة مرة ، وذيل كلب .

مع أن الرجل تمدد في السرير مساءً مع زوجته . وشاركها المخدة التي يشاركها فيها منذ ثلاثين سنة .

عندما فتح الرجل عينيه ، رأى في حضنه وحشاً مخيفاً ، فتح ذراعيه ، وألقى بنفسه إلى الجدار الذي خلفه ، وصرخ بأعلى صوته . قفز الوحش الذي استيقظ على هذا الصوت ، وسأل :

ـ مالك يا زوجي العزيز ؟

كان الوحش يتكلم مثل الإنسان ، وصوته صوت زوجته . ولكن صوت زوجته هذا أرق مما كان عليه ، وأحلى وأجمل .

قفز الرجل من سريره بالقميص والسروال الداخليين عندما سمع الوحش يتكلم بصوت زوجته . هرب إلى زاوية الغرفة ، وتكور هناك . نهض الوحش المرتدي (كومبينزون) من (الجورسيه) الزهري . إنه ليس وحشاً فحسب ، بل أم عمالقة . ثدياها ككيسي طحين فارغين ، رُفعا إلى كتفيها . وشعرها كمكنسة مثل شعر الساحرات . مدت مخلبها الأيمن نحوالرجل المرتجف خوفاً ، وسألته :

ـ مالك يا زوجي العزيز ؟ مالك ؟

آه من عذوبة وتأثير صوت أم العمالقة هذه . . ولكي لا يرى الرجل أم العمالقة ، أغلق عينيه بيديه ، وبدأ في الصراخ .

فجأة ، فُتح باب غرفة النوم . دخلت ثلاثة مخلوقات غريبة . إنها تشبه أفاعيَ ضخمة نهضت على قدمين . جلودها محرشفة . لكنها ليست أفاعيَ بالضبط . كان لها آذان طويلة لها وبر . ينسدل شعر أحدها كخيطان ليفية إلى كتفيها .

عندما رأى الرجل المخلوقات الغريبة الثلاثة خرجت عيناه من محجريهما ، وصرخ عندما استعاد صوته ، صاح بأعلى ما يمكنه :

ـ الحقوني! . .

ارتمت نحو الرجل ، ذات الشعر الليفي وقالت :

ـ بابا ، بابا

ثم الثلاثة معاً ، اندفعت نحوه ، وقالت :

ـ بابا ، بابا . . مالك ؟

كان الرجل خائفاً ومندهشاً . إن هذه المخلوقات الغريبة وهي مزيج من الأفعى والبغل والإنسان تتكلم بأصوات أولاده تماماً .

رمى الرجل بنفسه نحو الباب ، وصرخ :

ـ أماه!

كان لديه أمّ في الثمانين من عمرها . انبعث من الغرفة الداخلية صوت أمه :

ـ ماذا حدث يا بني ؟

عندما فتح باب الغرفة التي أتى منها صوت أمه ، كاد أن يسقط مغمياً عليه . كان في الداخل مخلوق بوجه إنسان ، وجذع متطاول لبقرة ، وليس فيه موضع دون جرح .

ـ ماذا حدث يا بني ؟

فم المخلوق في رقبته ، وأنفه وسط جبينه ، جذعه جذع بقرة ، وكان يتكلم بصوت أمه .

هرع الرجل . ارتدى ثيابه . وبينما كان يلبس ثيابه بسرعة ، أحاطت به المخلوقات الثلاثة التي تشبه الأفاعي ، وأم العمالقة ، والمخلوق شبيه البقرة . وقالوا له متسائلين :

ـ احك يا عزيزي مالك ؟

وتسأله ذات هيئة أم العمالقة :

ـ لماذا تنظر إلينا هكذا بخوف ؟

وقالت الأفعوانية ذات الشعر الليفي :

ـ لماذا ترتجف يا بابا ؟

صرخ الرجل :

ـ اغربوا ، اذهبوا!

وبصعوبة رمى بنفسه إلى الشارع . ولكن ما هذا ؟ في الشارع

ثمةمخلوقات غريبة لم يُر مثلها حتى ذلك اليوم . وهذه ليست إنساناً بشكل تام ، وليست حيواناً . رأس كركدن على جسم فيل . مخلوقات ذات وجه قردي ، وجذع جمل . وضفادع ذات رأس إنساني انتفخت بحجم بقرة تتقافز هنا وهناك . هذه لم تكن حيوانات أيضاً .

وبهلع فظيع ، وضع الرجل يديه على رأسه ، وبدأ الركض في الشوارع . لكنه لم يتخلص بأي شكل من وسط هذه المخلوقات المقرفة والمخيفة . ركض . ركض حتى أوشك نَفَسهُ على التوقف . صعد أدراج الدائرة التي يعمل فيها . وقد ملأت هذه المخلوقات الغريبة والمقرفة الدائرة . رمى بنفسه إلى غرفته . عبر إلى وراء طاولته وجلس على كرسيه . ضغط على زر الجرس منادياً الآذن . دخل ديك رومي برأس كلب يسير على قدمي إنسان ، وقال :

ـ أمرك يا سيدي . .

صرخ الرجل :

ـ سأجن ، سأجن . .

سأله شبيه الديك الرومي الداخل :

ـ لماذا يا سيدي ؟ هل ثمة ما يضايقكم ؟

إنه صوت معروف جداً له . إنه صوت آذنه . أغمض عينيه لكي لا يراه ، وقال :

ـ استدع لي السيدة ف . . فوراً!

ـ أمرك!

السيدة ف ، هي ضاربة الآلة الكاتبة في الدائرة ، التي يحبها الرجل بجنون . كانت فتاة ليس ثمة من يفوقها جمالاً . بعد قليل فُتح الباب . دخلت فقمة جلدها كأنه مدهون بمادة لزجة . ولها أربعة قوائم كلب ، خلفها ذيل ضخم جداً ، وطويل ، أطول من أفعى .

عندمارأى هذا الرجل ، وضع يديه على وجهه وصرخ :

ـ من أنت ؟

قال المخلوق الشبيه بالفقمة :

ـ طلبتموني . .

قفز الرجل مذعوراً ، ودخل غرفةالمدير . كان يجلس إلى الطاولة وحش مقرف آخر .

واربه ، وقال لنفسه :

ـ هل أنا أحلم ، هل أنا أحلم ؟ هل أنا نائم ؟

رمى بنفسه إلى الشارع . الوحوش نفسها مرة أخرى . تلك المخلوقات الغريبة . عناكب تعملقت . أمهات أربع وأربعين بحجم الفيلة ، عقارب برؤوس إنسانية ، تماسيح بأرجل لقالق .

بدأ الرجل يركض بجنون في الشوارع ، ويرمي بنفسه من هنا إلى هناك ، ويركض بكل ما يستطيع من قوة ، ويصرخ بأعلى صوته :

ـ أنقذوني أنقذوني . .

وتبعته كافة المخلوقات الغريبة التي رأته يصرخ ويركض بهذا الشكل . بدأوا يلحقون بالرجل من أجل أن يقبضوا عليه . كان الرجل يهرب . يظهر أمامه عقرب لكي يقبض عليه ، فيداوره ويهرب منه . يعرقله خنزير بري فيتدحرج الرجل ثم ينهض ويهرب من جديد . من جهة أخرى كان يصرخ :

ـ أنقذوني! الحقوني . .

استمرت هذه المطاردة في الشوارع ساعات طويلة . في النهاية حوصر الرجل متعباً ومنهكاً في حفرة وسط زقاق مسدود . كان مزيج الإنسان ـ الحيوان الذين يحيطون به يقولون :

ـ واخ ، واخ ، جن المسكين! . .

ربطوا يدي الرجل وذراعيه ورجليه بقوة بالحبال . . لم يكف هذا . فضربوا على يديه ورجليه القيد ورموه في سيارة وأخذوه إلى قدام بناء ضخم . كتب على الباب : « مشفى الأمراض العقلية » أدخلوا الرجل ، ثم أخذوه إلى غرفة كتب على بابها : رئيس الأطباء . كان الرجل يئن قائلاً :

ـ أنقذوني . . ألا يوجد إنسان ؟ أنقذوني!

دخل مخلوق وجهه مخيف . أرجله أرجل سلطعون ، ويلبس صدارة طبيب بيضاء . قال :

ـ فكوه!

فكوا حبال الرجل وقيوده . أدار ظهره لمن في الغرفة وانكفأ بوجهه على ركبتيه . سأله المخلوق ذو الصدارة البيضاء بصوت رقيق :

ـ مالكم ؟

لم يرفع الرجل المتكور رأسه عن ركبتيه ، قال :

ـ لا شيء .

ـ لماذا لا تنظر إلي ؟

حكى الرجل ما جرى له منذ أن فتح عينيه في الصباح ، وقال وهو يئن :

ـ أين الإنسان ؟ أين الإنسان ؟ أنا أبحث عن إنسان!

صدر عن الرجل ذي الصدارة البيضاء ما يشبه الضحكة . وقال :

ـ فهمت ، فهمت . سأداويك بسرعة .

بعد هذا ، قال لسلحفاة ضخمة بجانبه :

ـ هاتي مرآة الأنا يا بنتي!

جلب مخلوقان ضخمان هما مزيج من الخنزير والسلطعون مرآة ضخمة . قال ذو الصدارة البيضاء للرجل المتكور والمغمض العينين :

ـ انظروا إلى المرآة التي أمامكم!

كان في المرآة خيال لمخلوق أكثر قرفاً ، وأكثر إرعاباً من تلك التي رآها منذ فتح عينيه في الصباح حتى الآن . كان هذا وجه إنسان جريح . يسيل من الجروح دم وقيء . طالت أسنانه . اثنان منها وصلا إلى أسفل الذقن . له عينان متورمتان بحجم الفنجان ، وعلى رأسه قرون متشعبة . جلده متحرشف . تضخم ، غدا مثل خنفساء بلون خضرة السم .

صرخ الرجل خوفاً أمام هذا الخيال المقرف والمخيف ، وسقط أرضاً

مغمياً عليه . بعد أن نام فترة فتح عينيه وسأل بصوت مُتْعَبْ :

ـ أين أنا ؟

قال الطبيب ذو الصدارة البيضاء :

ـ إنكم هنا في المشفى . كيف حالكم ؟ هل أنتم بخير ؟

ابتسم الرجل وقال :

ـ أشكركم يا دكتور ، أنا بخير . .

قال الطبيب :

ـ من الآن فصاعداً ابحثوا عما تريدون البحث عنه في أنفسكم أولاً!

كان إلى جانب الطبيب مساعدتان جميلتان . شكرهما الرجل وخرج من هناك . كان في الطرقات أناس كما كان دائماً . عمل في دائرته حتى وقت الإنصراف . ثم ذهب إلى بيته . قال لزوجته :

ـ كيف حالك يا عزيزتي ؟

قالت زوجته :

ـ صباح الخير . استغرقتَ في النوم كثيراً هذا الصباح . الإفطار جاهز ، ونحن بانتظارك .

غسل الرجل وجهه بعد أن نهض من السرير . قبل أولاده . سمع صوتاً ينبعث من الداخل :

ـ كيف حالك يابني ؟

أجاب الرجل :

ـ حسن يا أمي ، وأنت بخير ؟

حكاية ذئب مختلفة

في يوم من الأيام ، كان في مكان عند المنعطف من الشرق إلى الغرب ، قرب الشمال ، بعيداً عن الجنوب ، يعيش راع وقطيعه ، ويحرسه عدد من كلابه .

مياه ذاك المكان رقراقة ، جباله وسهوله كيّسة ، أجواؤه معتدلة ، أراضيه خصبة سمواته السبع أخّاذة . لكن هذا الراعي لا يشبه الرعاة الباقين . فهو لا يعرف للرحمة معنى ، ولا يفهم الآخ أو الآه . كان ظالماً ، يحمل بدل الناي صفارة ، وبيده هراوة . والأغنام التي يحلبها ، ويجز صوفها ، ويبيع أمعاءها ، ويأخذ روثها ، ويسلخ جلدها ، ويأكل لحمها ، ويستغل حتى نخاعها ، ويستفيد من كل ما فيها ، لا يكن لها شفقة أو محبة .

يحلب الغنمات يومياً ثلاث مرات ، صباحاً ، وظهراً ، ومساءً . ومهما كانت كمية الحليب التي يحلبها ، يجدها قليلة ، فيحلبها حتى يسيّل الدم من أثدائها . وعندما تثغو الغنمات ذارفة الدموع من عيونها ، ونازفة الدماء من أثدائها ألماً ، ينهال الراعي الظالم بالدبوس على رؤوسها ، وبالسوط على ظهورها ، ويقول لها صارخاً :

ـ سأحلبكّن حتى يتهدل جلدكنّ ، ويفرغ جوفكن يا سافلات .

هذا الراعي الظالم ، الذي لا تسقط صفارته من فمه ، ولا يفارق دبوسه

أو سوطه يده يريد ان يحصل على أربعين كيلو غراماً من الحليب ، من غنمة لا تزن ثلاثين كيلو غراماً .

لم تحتمل الأغنام وحشية الراعي فكانت تتناقص من يوم إلى يوم . صارت الغنمات في القطيع قليلة . التي تموت تخلص ، والتي تبقى تضطر لتحمل إثم اللواتي متن . لأن الراعي يريد من الغنمات الباقية تعويض ما يخسره نتيجة موت غنماته التي لم تحتمل بطشه . وهكذا ، إذا بقي لديه غنمة واحدة ، فستضطر هذه الغنمة لتقديم حليب وصوف قطيع كامل .

تناقصت الغنمات من القطيع حتى لم يبق إلا القليل جداً منها لدى الراعي . وكان الراعي يغضب ويعصِّب ، ويجن لأنه كان يحصل على حليب ، وصوف ، وروث أقل مما كان يحصل عليه .

وكان يطارد أغنام القطيع المتبقية في الجبال والسهول حاملاً هراوته في يده ، ومطلقاً كلابه أمامه . كان بين الأغنام خروف . وكان الراعي يريد حلب هذا الخروف المسلول ، والحصول على حليب عشرين جاموسة منه . وكان غضبه على الأكثر من هذا الخروف لأنه لم يكن يحصل على قطرة حليب واحدة من الخروف ، لأنه خروف .

في يوم من الأيام ، غضب الراعي من الخروف ، فضربه ضرباً مبرِّحاً ، جعله يهرب أمامه . كان الخويرف لا يستطيع الجري . لم يحتمل العصي التي ضُربها ، فقال للراعي باللغة الغنمية :

- يا سيدي الراعي ، أنا خروف . قوائمي ليست مخصصة للركض ، بل للمشي .

الأغنام لا تركض . أتوسل إليك بأن لا تضربني ، ولا تلاحقني . .

لم يكن الراعي يستطيع فهمه . كان يظن موت الأغنام التي لم تحتمل الظلم خيانة له . فكان يصرخ :

- سافلات! على الرغم مما بذلته لحمايتهن ، في النهاية متن ، من أجل أن يخسِّرنني ويخنِّني فقط .

وكان يريد الانتقام منها بهذا الخروف المسكين .

ومع الأيام بدأ شكل أظلافه يتغير لكثرة هروبه إلى الجبال الصخرية ، والهضاب الوعرة للخلاص من دبوس الراعي القاتل ، أو هراوته . تطاولت قوائمه ، ورفعت . عندما صارت هكذا ازدادت سرعة ركضه هرباً . لكن الراعي لم يترك إليته . والخويرف مضطر للركض أسرع ، وأكثر ليتخلص من هراوة الراعي . ولكثرة تمرغه فوق الصخور المسننة انقلعت أظلافه ، ونبتت مكانها أظافر من نوع آخر ، مدببة الرأس ومعقوفة . لم تعد هذه أظافر بل مخالب .

لم يكن الراعي يستطيع إخماد غلّه بأي شكل . وكان الخروف يثغو :

ـ يا سيدي الراعي . أنا خروف . لماذا لا تريدون فهم هذا ؟ أنا خروف ، ولا يمكن لي التحول إلى شيء آخر .

لم يكن يفهم الراعي هذا الثغاء . ولكثرة الركض والهرب خفس بطن الخروف إلى داخله ، واستطال جسمه ، ومع الزمن بدأ يتساقط صوفه . وفي النهاية لم يبق على جسمه أثر للصوف ، وبدأ ينبت مكانه أوبار رمادية قصيرة .

لم يعد يستطيع الراعي ملاحقة الخروف . ليس الراعي فقط ، بل حتى الكلاب لم تعد تستطيع ملاحقته أيضاً .

كان الراعي يلاحق الخروف ، ويستمر بملاحقته حتى يحصره في مكان ضيق ، وهناك يضربه . كان الخروف يثغو :

ـ يا سيدي الراعي ، لست سوى خروف .

لم يكن يفهم هذا الراعي الذي يرغي ويزبد غضباً ، هذا الثغاء .

كان الخروف يحاول تشنيف أذنيه من اجل سماع صوت قدوم الراعي والكلاب . ومع تكرار محاولاته انتصبت أذناه وأصبحت مدببة قابلة للحركة في كل اتجاه . وبواسطة هاتين الأذنين كان يسمع وقع الأقدام من مسافة بعيدة ، ويهرب . ولكن ما الفائدة ؟ مهما فعل فما كان يتخلص من بين يدي

الراعي . كان يقبض الراعي على الخروف ليلاً لأن عينيه كانتا تعشيان ، ثم يضربه . وكان الخويرف يثغو باكياً :

ـ سيدي الراعي . أنا خروف . لا تحاول تحويلي إلى شيء آخر غير الخروف!

لم يفهم الراعي . لم يعد ينام الخويرف ليلاً . حدق بعينيه في الظلام . ولكثرة تحديقه كبرت عيناه ، وبدأتا تطلقان شرراً . وغدت عينا الخروفِ المتلامعتان كعودي كبريت في الليل تريان في الظلام أيضاً .

كان يستثقل إليته أثناء الركض . ولولا تلك الإلية لن يتمكن الراعي أبداً من القبض عليه . ولكثرة الركض ذابت إليته واستطالت . وفي النهاية أصبحت ذيلاً بشكل السوط . كان الخروف ينصبُ ذيلَهُ السوطي المتطاول في الهواء ويهرب . ولكن مهما عمل فلا يتخلص من بين يدي الراعي . كان الراعي يرميه من خلفه بالحجارة . كان الخروف يثغو :

ـ سيدي الراعي . أنا خروف . ولدت خروفاً . وأريد أن أموت كبشاً . لماذا ، ومن أجل ماذا ، ولفعل ماذا تضغط علي ؟

لم يكن الراعي يفهم . بدأ الخروف يهاجم الراعي عندما كان يحصره في حفرة ما لحماية نفسه من الضرب . وصل إلى حده الأعلى غضب الراعي الذي تملص من بين أنيابه . اضطر الخروف لاستعمال أسنانه . لكنه لم يكن يستطيع استعمال أسنانه داخل ذقنه المفلطحة . وبعد محاولات دامت أياماً بدأت أسنانه تنمو . وفيما بعد استطال لسانه أكثر . كان يثغو ولكن ثغاءه لم يكن كما كان عليه في الماضي . لكثرة الثغاء ، والتوسل غلظ صوته ، وأصبح خشناً .

كان الراعي يُحَوِّي كلابه على الخروف . لم تعد الكلاب تستطيع مجابهة الخروف كما كانت فيما مضى . كان الخروف يلقي أحد الكلاب أرضاً بضربة من مخلبه ، ويلقي آخر جانباً بعد أن يعضه من رقبته .

أما الراعي الذي جن جنونه لشدة حرصه ، كان يحاصر الخروف في

مكان لا يستطيع الهرب منه ، وينهال عليه بالضرب . بدأ الخروف يقول له بصوت أجش :

ـ لا تعمل هذا يا راعي . انتبه يا راعي . . ستكون النهاية سيئة يا راعي . .

كانت هذه التوسلات العصية على فهم الراعي تجعله يخرج عن طوره تماماً .

كان صباح يوم شتوي . استيقظ الراعي مبكراً على عادته . كل مكان مغطى بطبقة سميكة من الثلج . تناول الراعي دبوسه ليجعل بواسطته كل غنمة من الغنمات القليلة المتبقية لديه تحلب حليب عشر بقرات . كان سيذهب إلى الزريبة . خرج من الباب فرأى بقعاً من الدم الأحمر فوق الثلج . تلفت إلى اليمين وإلى اليسار . رأى أشلاء أغنام متناثرة . قُتلت كافة الغنمات ، ومُزِّقت . لم يبق من ذاك القطيع الكبير ولا غنمة واحدة .

ظلل عينيه بيده ، ونظر إلى البعيد ، فرأى الخروف . كان الخروف قد مد قائمتيه الأماميتين قدامه ، وتمدد بجثته الضخمة على الثلج . كان يلعق بلسانه الطويل الدماء من حول فمه .

ثمة كلبا حراسةيتمددان على جانبيه دون حراك .

نهض الخروف ، وسار بهدوء نحو الراعي . كان يشخر .

وبينما كان الراعي يتراجع إلى الخلف مرتجفاً . قال متمتماً :

ـ يا خروف . يا خروفي . . يا خروفي الجميل!

عوى الخروف :

ـ أنا لم أعد خروفاً .

تمتم الراعي مرة أخرى :

ـ خروف . يا خروف ، يا خروفي الجميل!

عوى الخروف قائلاً :

ـ في السابق كنت خروفاً . ولكن بفضلك أصبحت ذئباً!

ـ أنت خروفي الصغير ، الحباب والعاقل .

قال الخروف عاوياً :

ـ تأخرتَ كثيراً يا سيد راعي . . وانقض عليه .

أراد الراعي أن يهرب ، لكنه لم يتملص من بين مخالب الخروف المستذئب . وغرز أنيابه المدببة في رقبة الراعي . امتص الثلج دمه القاني والحار .

إن الذين يعرفون قراءة هذه الكتابة ، ومروا من هناك ، قرأوا الكتابة الحمراء المدونة على الثلج وعلموا بقصة الراعي والخروف . والناس منذ مئات السنين يتناقلون قصة الذئب من جيل إلى جيل .

شك شاك

ثمة عالم آخر لا يعرفه سكان هذا العالم المعروف . وفي ذلك العالم ثمة قارة سابعة لا يعرفها سكان قاراته الست ، وفي هذه القارة ثمة دولة لا يعرفها سكان تلك القارة . وكان سكان تلك الدولة المجهولون في تلك الدولة المجهولة ، من تلك القارة المجهولة من ذلك العالم المجهول يعيشون بحالهم وذاتهم .

وفي أحد الأيام ، ذهبت مجموعة رجال من هذه الدنيا المعروفة إلى تلك الدولة المجهولة في تلك القارة المجهولة من ذلك العالم المجهول . وقالوا لسكانها :

ـ أيها الناس المجهولون العائشون منذ زمن مجهول في الدولة المجهولة من القارة المجهولة من العالم المجهول! نحن أناس معلومون ، نعيش منذ زمن معلوم في دولة معلومة من قارة معلومة من العالم المعلوم . إننا نرى أنكم متخلفون جداً ، ودُهِشنا لهذا الحد من تخلفكم .

غضب الناس المجهولون في الدولة المجهولة من القارة المجهولة من العالم المجهول لهذه الكلمات وقالوا :

ـ لا ، نحن لسنا في دولة متخلفة .

سألهم القادمون من العالم المعلوم :

ـ كيف تثبتون عدم تخلفكم ؟

ـ نحن نصطاد الحيوانات والأسماك .

قال القادمو من العالم المعلوم :

ـ كان الإنسان قبل خمسة آلاف سنة يصطاد الأسماك .

قال الناس المجهولون :

ـ ولكننا نعمل في الرعي . ولدينا قطعان الأغنام ، ومرابط الأبقار . نحلب الماشية ونصنع الرائب .

قال الناس المعلومون :

ـ كان الذين يعيشون قبل أربعة آلاف سنة يعملون ما تعملون .

قال أناس العالم المجهول :

ـ لكننا نعمل في الزراعة أيضاً . نزرع ونحصد . ونعتني بالزرع والمزارع .

قال أناس العالم المعلوم :

ـ ما تقولونه يُعمل منذ ثلاثة الاف سنة .

قال أناس العالم المجهول :

ـ نحن ننتج القطن . ونزرع التبغ والشمندر . ونجمع البندق .

قال الناس المعلومون :

ـ هذه الأعمال التي تذكرونها تعمل منذ ألفي عام .

لحظتئذ ارتبك الناس المجهولون في الدولة المجهولة ، من القارة المجهولة من العالم المجهول وتساءلوا :

ـ عسانا فعلاً دولة متخلفة لم نتطور ؟

ردوا على تساؤلاتهم بأنفسهم :

ـ من الواضح أننا هكذا .

وسألوا أناس العالم المعروف :

ـ حسن ، ما الذي علينا أن نفعله لنتطور ؟ ماذا يجب علينا أن نفعل لكي نتطور ؟

قال الناس المعلومون في الدولة المعلومة من القارة المعلومة ، من العالم المعلوم :

ـ تعالوا وشاهدوا دولتنا ، واعملوا ما عملناه . انظروا إلى ما عملناه وطورناه!

دخلت هذه الكلمات عقولهم . ذهب الناس المجهولون من الدولة المجهولة ، والقارة المجهولة ، والعالم المجهول إلى الدولة المعلومة في القارة المعلومة من العالم المعلوم ، وأمعنوا النظر فيما عمله الناس المعلومون وعرفوا ما هو . ثم عادوا إلى بلدهم . قال أوائل العائدين :

ـ نحن فهمنا الفرق . عندهم آلات .

قال الذين أتوا بعد هولاء :

ـ عرفنا سبب تقدمهم . عملوا آلات فتطوروا . .

كان كافة القادمين من العالم المعلوم يقولون :

ـ الآلة .

ـ علينا أن نصنع الآلات لنتطور .

ـ لايمكن لنا أن نتطور إذا لم نعمل آلاتٍ .

عندما وحّد الجميع رأيهم على هذه الفكرة قالوا :

ـ إذا كان الأمر هكذا ، فلنعمل الآلات نحن أيضاً .

أُخرج المنادون إلى كافة أطراف البلد ، وأمروا بمناداة :

ـ ليأت الذين رأوا الآلات في العالم المعلوم ، والذين يفهمون بعمل الآلات ، لأننا سنعمل في بلدنا آلات .

اجتمع كافة الناس الذين يفهمون بالآلات ، أو رأوها ، بعد أن توافدوا من كافة أرجاء البلد ، وقيل لهم :

ـ كل ما تطلبونه بأمركم ، وكل ما تتمنونه جاهز . كل ما هو مطلوب منكم أن تعملوا آلة ، وتطوروا بلدنا . .

بدأوا العمل في الآلة . اشتغلوا ، واشتغلوا ، وبعد أن قضوا سنوات في

العمل ، نظر العاملون في الآلة إلى ما عملوا من بعيد ومن قريب ، من هذا الجانب ومن ذاك ، من الأمام ، ومن الخلف ، من الأعلى ومن الأسفل ، وتساءلوا :

- ترى صارت ؟

قال الذين رأوا الآلات في الدولة المعلومة من القارة المعلومة من العالم المعلوم :

- صارت ، صارت . . إنها تشبه تماماً الآلات التي رأيناها هناك .

بعد هذا عمموا في كل البلد :

- صنعنا الآلة . وفي اليوم الفلاني سيعمل حفل افتتاح . ليأت الجميع ويروا الآلة التي عملناها .

اهتزت حتى الأرض طرباً لهذا النداء . وجاء الجميع لرؤية الآلة . وقال أكبر كبار البلد :

- عملنا آلتنا ، ومن الآن فصاعداً سنتطور .

قال أحد زوار العالم المعلوم :

- هذه من جهة كونها آلة ، فهي آلة ، ولكنني أشعر بأنها ناقصة . حسبما تعلق بذاكرتي من الآلات التي رأيتها في العالم المعلوم ، فإن لها دواليب ، وليس لهذه دواليب .

قالوا :

- نعم ، نعم . كان للآلات التي رأيناها دواليب . وليس لهذه دواليب . ليعمل لها دواليب فوراً . تنفيذاً لهذا الأمر انكب العمال والمعلمون على العمل . وعملوا مجموعة من الدواليب ، وركبوها في عدة أمكنة من الآلة التي نصبوها . لكنهم وجدوا الدواليب قليلة فزادوها . وهكذا صارت الآلة شيئاً ضخماً .

ولكن في هذه الأثناء قال أحدهم :

- يتهيأ لي أن لتلك الآلات التي رأيناها محاور . .

قالوا :

ـ نعم ، نعم . كان للآلات التي رأيناها محاور . ليعمل لها محاور فوراً .

باشروا العمل مجدداً وعملوا محاورَ كبيرة وصغيرة ، وركّبوها في الأمكنة التي وجدوها فارغة . وبإضافة المحاور التي استغرقوا سنوات طويلة بعملها ، كبرت الآلة إلى حد أصبحت لم تعد فيه تسعها المدينة التي توجد فيها . وعندما انتهى هذا العمل أطلقوا المدافع معلنين إنهاء العمل فيها . وعَيّدَ شعب تلك الدولة بهذه المناسبة ، وتهادى من كل حدب وصوب لرؤيةالآلة . قال أحد الكبار :

ـ هاه . . الآلة هكذا تكون . . ومن ناحية اخرى ، عملنا آلة كبيرة جداً .

قال واحد من بينهم :

ـ من ناحية الجمال ، فالآلة صارتْ جميلة . ولكن يتهيأ لي أن هذه الآلة ينقصها شيء ما . ألم يكن للآلات التي رأيناها اسطوانات ؟

قالوا :

ـ نعم ، نعم . حسن أنك ذكرتنا . كدنا أن نعمل آلة بدون اسطوانات . وكنا سننتظر تطورنا دون جدوى . لنعمل اسوطانات لهذه الآلة .

بدأوا بعمل الاسطوانات . وقضوا بعملها وتركيبها للآلة سنوات . كبرت تلك الالة وتضخمت ، وثلث الدولة غطت . وفي النهاية صارت آلة يقول كل من يراها : «دخيله ما أحلاها» .

أتى شباب وشياب ، مرضى ومعافون ، أطفال ورجال تلك الدولة لرؤية الآلة . قال كبار رجال الدولة :

ـ حلوة ، حلوة جداً . . هذه هي الآلة ، ولا شيء سواها .

ولكن قال واحد بينهم :

ـ ترى هل تخونني ذاكرتي . حسبما علق بذاكرتي ، فإن الآلة التي رأيناها كان فيها مرجلٌ ، أو حرّاقة أو شيء من هذا القبيل .

قال أحد الكبار :

ـ نعم ، صحيح . منذ مدة وأنا أفكر بأن هذه الآلة ناقصة ، ولكن ماذا ؟ نعم ياه . بالطبع هذه بحاجة إلى مراجل ، وحرّاقات . أيمكن أن تكون آلة بدون مراجل أو حرّاقات ؟ ليعمل مرجلٌ وموقدٌ ، وبوتقةٌ فوراً .

قالوا : « أمركم على الرأس » ، وانكبوا على العمل . عُملت المراجل والحرّاقات . وعندما امتلأت الآلة من كل جوانبها بالمراجل والحرّاقات ، أخبروا الكبار قائلين :

ـ لم يبق فيها موضع لتركيب مرجل أو حرّاقة . الظاهر أنها صارت .

مرة أخرى اجتمع الشعب فرحاً . وعندما رأى الآلة كبار الدولة القادمون وسط التصفيق ، قالوا :

ـ هاه . اسم الآلة لا يطلق إلا على واحدة كهذه . لم يبق أمامنا ما يعيق تطورنا . ها هي الآلة صارت .

قال أحد الموجودين هناك :

ـ ألا ترون أن هذه الآلة ناقصة ؟ كان في تلك الآلات التي رأيناها ما يدعى بكرات سرعة . أين بكراتها ؟

قال الآخرون الذين سمعوه :

ـ الله يعطيك العافية . كدنا أن ننسي ونعمل آلة بدون بكرات . أرأيت هذا . . لتُعمل البكرات فوراً ، ولتركّب إلى الآلة .

قُضيت سنوات بعمل البكرات الكبيرة ، والصغيرة ورُكّبت إلى الآلة .ولكن الآلة كبرت ، وكبرت حتى غطت أكثر من نصف الدولة .

عندما ركّبت البكرات بدأ عيدٌ لم يُر له مثيلٌ في تلك الدولة . توافد الناس إلى رؤية الآلة ، مع قرع الطبول وصوت الزمور . عندما رأى كبار رجالات الدولة الآلة التي تغطي أكثر من نصف الدولة قالوا :

ـ أوه ، الشكر والحمد لك يا رب ، في النهاية عملنا هذه الآلة ، فلا تخافوا بعد الآن سنتطور .

ولكن مرة أخرى ، خرج أحدهم قائلاً :

ـ أنا لا أذكر جيداً . . ولكن على ما أعتقد أنه يوجد أشياء أخرى في الآلات التي رأيتها . هاه ، نعم ، نعم ، تذكرت . . أنابيب ، أنابيب . . أين أنابيب هذه الآلة ؟ أيمكن ان تكون آلة دون أنابيب ؟ لكافة الآلات التي رأيناها أنابيب .

صاح الآخرون :

ـ طال عمرك ، دام عقلك . كيف نسينا هذا ؟ . . الأنابيب ياه . . الأنابيب . . أيمكن أن تكون الآلة آلة دون أنابيب ؟ كدنا أن ننسى ، وتذهب كل جهودنا سدى . يا الله ، لنعمل أنابيب لهذه الآلة . .

انكبوا على العمل . عملوا ليلاً نهاراً مضت سنوات ، وصنعوا الأنابيب ، وأينما وجدوا ثقباً أو فراغاً مرروا منه أنبوباً . كبرت الآلة ، وكبرت إلى حد أنها قاربت أن تغطي كل الدولة .

تراكض الناس بفرح عيدي لرؤية الآلة . نظر الكبار إلى الآلة ، وأمعنوا النظر ، ثم قالوا :

ـ صار كل شيء جاهزاً ، لم يبق أي نقص . . عملنا الآلة ياه . . صار بإمكاننا أن نتطور .

في هذه الأثناء برز واحد منهم قائلاً :

ـ أنا أشعر أنها مازالت ناقصة .

قال بقية الكبار :

ـ مستحيل . كبرت الآلة إلى حد لم يعد البلد يتسع لها . ما الذي يمكن أن يكون ناقصاً في آلة كهذه ؟ لا تُدخل الشقاق بيننا ، وتخربط عقولنا .

قال معارضوهم :

ـ احكوا ما تريدون أن تحكوه . هذه الآلة ناقصة . ألم تكن الآلات التي رأيناها تعمل : شك شاك ؟ الاسطوانات تروح وتجيء ، والدواليب تدور ،

والمسننات تتداخل . والبكرات تفرفر والمراجل تغلي ، والحراقات تشعل ، والمحاور تدخل وتخرج ، والأذرع تقوم وتقعد ، وتعمل ضجيجاً . ولكن آلتنا هذه لاتخرج صوتاً ، أو تكة .

فكر الآخرون ، ثم أمعنوا التفكير ، ثم قالوا :

ـ في الحقيقة هكذا كانت . كانت الآلات التي رأيناها تخرج ضجيجاً شك شاك ، شك شاك والبكرات ، والقشط والمسننات تدور . هذا يعني أننا عملنا الآلة ولم يبق إلا ضجيجها . هيا مزيد من الجهد ، ونعمل هذا أيضاً ، فتصير وتنتهي . .

عملوا سنوات وسنوات ، وبذلوا الجهود واشعلوا الحراقات ، وغلوا ماء المراجل وربطوا الاسطوانات بالمحاور ، والمحاور بالمسننات ، والمسننات بالأذرع ، والأذرع بالقشط ، والقشط بالأنابيب ، والأنابيب بالبراغي . عملوا وعملوا وفي النهاية بدأت الدواليب تبرم والمحاور تروح وتجيء ، والمسننات تدور ، والبكرات تعمل ، والمحاور الأسطوانية تنزلق ، والبراغي تخشخش . أحدثت ضجيجاً ، وصخباً أنّت له الأرض ، ورددت أصداءه السماء . صار من يسمع هذا الضجيج والصّخب يذرف دموعه فرحاً ، ويركض لرؤية الآلة . اجتمع سكان كل الدولة حول الآلة . وبدأت الاحتفالات .

وتقاول كبار رجالات الدولة متفاخرين :

ـ انظروا جيداً . أيخطر ببالكم شيء آخر ؟ لا تتركوا أي نقص في الآلة .

لم يخطر ببال أحد أي نقص . إنها مطابقة تماماً ، وبالضبط لتلك التي رأوها . قالوا :

ـ كل شيء على مايرام . فيها زيادة وليس فيهانقصان . لو كان ينقصها شيء ما ، هل كانت تعمل شك شاك هكذا ؟ حتى إن آلتنا أكبر من آلاتهم . اسمعوا هذه الأصوات ، وهذا الضجيج والصخب! أي ضجيج ، وأي صخب

ينبعث من آلتنا ؟!

قال الآخرون :

ـ نعم . علمنا الآلة . وشغلناها . صار بإمكاننا أن نتطور . لتعمل الآلة دائماً ، دون توقف لكي نتطور دائماً وبشكل متواصل . .

كانوا لايتوقفون عن إلقاء الحطب في حرّاقاتها . والحرّاقات لا تنطفىء ، والآلة تعمل .

كان كل يوم يزداد شعورهم بالفرح أكثر قليلاً عن اليوم الذي يمر بسبب تطورهم الناجم عن تشغيل الآلة . ولكن لأن هذه الآلة غطت غالبية أراضي الدولة ، فلم يعودوا يرّبون الحيوانات ويزرعون ويبذرون ويحصلون على المواسم . ولكنهم فرحون على الرغم من كل شيء ويقولون :

ـ عندنا آلة ياه . . إننا نتطور . .

في أحد الأيام ذهب الناس المعلومون من الدولة المعلومة ، من القارة المعلومة من العالم المعلوم إلى الدولة المجهولة في القارة المجهولة من العالم المجهول . وقابلوا الناس المجهولين ، وسألوهم قائلين :

ـ ما هذا الضجيج الذي يمزق طبلات الآذان ؟

ردوا قائلين :

ـ هذه الآلة . إنها الآلة التي عملناها . . كلما اشتغلت الآلة نتطور .

قال أناس العالم المعلوم :

ـ تطور ؟ أي تطور ؟ صرتم أسوأ مما كنتم عليه . ما هذه الآلة ؟

قال أناس العالم المجهول :

ـ إنها تشبه تماماً آلاتكم ، حتى إنها أكبر من آلاتكم . . ها هي أنابيبها ، وها هي مسنناتها ، وها هي دواليبها ، وها هي براغيها ، ومراجلها ، وحرّاقاتها ، وأقشاطها ، ومحاورها ، وكل أشيائها ، وهاهي تشتغل . .

قال الناس المعلومون من الدولة المعلومة من القارة المعلومة من العالم

المعلوم :

ـ حسنٌ ، ولكن ما الذي تعمله هذه الآلة ؟ بماذا تفيد ؟ ماذا تنتج ؟ لماذا تشتغل ؟

قال اناس الدولة المجهولة من القارة المجهولة من العالم المجهول وهم مندهشون :

ـ آ آ آ ه . . وهل يجب أن تعمل هذه الآلة شيئاً ، أو تنتج أشياء ؟

ـ لماذا عملتم آلة لا تفيد بشيء ؟ ما الذي ستستفيدونه منها ؟

قال الناس المجهولون من الدولة المجهولة :

ـ هذا غاية في الصحة . . نحن عملنا الآلة ، فلنجعلها الآن تعمل شيئاً .

ثم قالوا لأنفسهم :

ألا تخرج ضجيجاً ياه ؟ هذا يكفينا ،اسمع : شك شاك ، شك شاك . .

دَولة الراحة

كان ثمة عالِمٌ مسنٌ جداً يبحث في التراث . كان عجوزاً إلى حد أنه لا يستطيع المشي . كل صباح ، كان تلاميذه يجلبونه إلى «مكتبة بابيبو» المكتبة الأغنى في العالم ، ويتركونه هناك . وكان العالم العجوز يعمل حتى المساء ، عندها يأتي تلاميذه مرة أخرى ويأخذونه إلى البيت .

صار العالم العجوز ، لكثرة القراءة ، واستمراره بها سنوات طويلة ، نصف مبصر . ولأنه لم يستطع رؤية الكتابة المكتوبة بأكبر الحروف . فكان يقرأ مستخدماً المكبرة . كان ينكب على الكتب ويغيب كأنه ينجرف مع سيل الصفحات .

كان في قبو مكتبة بابيبو كتب تعود الى العصور القديمة جداً ، لم تمسها يد إنسان منذ قرون عديدة . وكان العالم المسن يعمل باحثاً في هذه الكتب .

وفي يوم من الأيام وجد هذا العالم مخطوطة . عندما بدأ بقراءتها شدته . لأن الكتاب كان يحكي عن «دولة الراحة» ، التي لم يرد ذكرها في تاريخ أو جغرافية . والكتاب يحكي عن مكان هذه الدولة ، ويحدد خطوط الطول والعرض التي تقع عليها .

اندثرت «دولة الراحة» هذه . وكانت ستُعدُ في عداد الحضارات البائدة .

أصدر العالم العجوز بياناً علمياً ، ونشر على العالم خبر هذه الدولة غير المعروفة . بدأ المنقبون الآثاريون ، البحث والتنقيب في منطقة خطوط الطول والعرض التي حددها الكتاب . وعندما وصلوا إلى عمق خمسة أذرع رأوا تحت الأرض مدينة كبيرة ، على الأصح ليست مدينة ، بل مدن ، بل دولة . .

أدهشت هذه الدولة المنقبين الآثاريين . لأنه لم يكن ثمة أثر لإنسان في هذه الدولة المندثرة ، الموجود فيها البيوت والطرقات والساحات والعربات ، وكافة الأدوات . بحثوا كثيراً فما وجدوا قبرا أو هيكلاً عظمياً .

كان في المدينة نُصُبٌ . وثمة كتابات على هذه النصب . ولكن لا أحد يستطيع قراءة هذه الكتابة الخاصة بهذه الدولة . وبعد عمل دام سنوات . استطاع علماء اللغة فك هذه اللغة البائدة ، ونجحوا بقراءتها .

كُتب على باب المدينة «دولة الراحة» . وعندما قرأوا الكتابات المدونة على المسلات اكتشفوا تاريخ الدولة ، وهكذا فهموا سبب عدم وجود أي أثر لإنسان .

تاريخ «دولة الراحة» المدون على المسلات على النحو التالي :

«أيها الإنسان! . . إذا مررت بهذه الأرض فاقرأ هذه الكتابة المحفورة على المسلات! واطّلع على ما جرى هنا! وخذ درساً مما جرى ، وارسم لنفسك نهجاً انطلاقاً من هذه العبرة» .

في أحد الأزمان . كان يعيش في هذه الدولة أناس سعداء . كان الناس يعملون ، ويتحابون ويتضاحكون ، ويتعايشون ، ويتكاثرون . بعد فترة سقط سكان هذه الدولة في التعاسة . لأنه ثمة دخان أسود بدأ يلف الدولة . في البداية لم يعرف أحد مبعث الدخان ومصدره . ظنوا أن بركاناً قد ثار . في الحقيقة ، كان الدخان الأسود كأنه ينبعث من فوهة بركان . هبط هذا الدخان فوق الساحات والطرقات والبيوت . ومع الزمن تزداد كثافته .

بعد بحث وتمحيص عُرف مبعث الدخان الأسود . كان ينبعث من فم

الرأس الأكبر الذي يدير دولتنا . كان كلما زفر رأسنا الأكبر ، أو فتح فمه يتدفق دخان مدقع السواد من فمه ، ويخيم هذا الدخان الأسود على دولتنا ، ولكن بسبب الاحترام أو الخوف فلم يجرؤ أحد على إبلاغ الرأس الأكبر بهذا .

خنقنا الدخان الأسود . صارت العين لا ترى ما أمامها ، والكبير لا يعطف على الصغير . ولم يعد أحد يعرف المحبة والاحترام . صار الناس يسحق بعضهم بعضاً . انقلب النظام رأساً على عقب . صارت الأقدام رؤوساً ، والرؤوس أقداماً . ولم يَعدْ يُعرف من يصعد إلى أعلى ، ومن يهبط إلى أسفل . وتعالى أنين المسحوقين إلى السماء . واختلط المصطدم بالساقط بالمتدحرج . ولم يعد يُعرف هذا من ذاك ، والنائب من المنوب والآخذ من السارق .

ولأن الدخان الأسود المنبعث من فم الرأس الأكبر ثقيل وكثيف فكان يهبط فوق الدولة ويرسخ . ولأن الرأس الأكبر في الأعالي فلا يَعرف ما يعاني منه الشعب . وعندما كان يقول من مقام سموه : « أيها الأخوة المواطنون . . » كان يهبط الدخان على الدولة . صار لا أحد يستطيع أن يتكلم أو يتنفس بسبب هذا الدخان الأسود . صارت حلوقنا تحترق ، وعيوننا تدمع . كنا نختنق .

ومع استمرار انبعاث هذا الدخان الأسود كنا لا نستطيع التخلص من هذه الخربطة . ولكننا لا نعرف ما الذي يجب أن نعمله لكي نخلص مما نحن فيه .

وفي يوم القيامة هذا ، ووسط هذه الخربطة ، سُمع صوتٌ :

ـ إذا صيرتموني رأسكم الأكبر ، سأخلص هذه الدولة من الدخان الأسود!

أصغى الجميع إلى هذا الصوت . كان صاحب الصوت من فريق عمل الرأس الأكبر .

جرت الانتخابات . أُنزل الرأس الأكبر من مقامه ، ورُفع إلى المقام شخص جديد . ولكن ليس ثمة ما تغير . إثر هذا قال الرأس الأكبر الجديد :

ـ أنا أستطيع طرد هذا الدخان الأسود ، ولكن علي أن أعمل . ومن أجل أن أعمل علي أن أرتاح!

قالوا له :

ـ كيف ستكون هذه الراحة ؟

قال :

ـ ليهدأ الضجيج والصخب! لا يصرخْ أحد فأرتاح!

إثر هذا صدر قانون يُمنع بموجبه كافة أنواع الضجيج والصخب . ولكن الدخان الأسود لم يتناقص . فقال الرأس الأكبر :

ـ أنتم لا تريحونني لأعمل .

قيل له :

ـ مستعدون لتقديم الراحة التي تريد ، كفاية أن تخلصنا من هذا الدخان الأسود! . .

قال الرأس الأكبر :

ـ اقطعوا الكلام . كلما تكلمتم تقلقون راحتي .

صدر قانون منع بموجبه كافة أنواع الكلام .

وفي ظلمة الدخان الأسود صار الناس يتصادمون ويتساقطون أكثر من السابق ، لكنهم لا يستطيعون الصراخ ، ولا الكلام .

كان الرأس الأكبر لايتوقف عن قول :

ـ أنتم لاتمنحونني الراحة لأعمل وأخلصكم من هذا الدخان الأسود . .

سألناه قائلين :

ـ كيف نريحكم ؟

ـ سعالكم يقلقني فلا أستطيع العمل . .

صدر قانون يُمنع بموجبه كافة أنواع السعال .

كان الدخان الأسود يتزايد . قال الرأس الأكبر :

ـ أنا قلق ، أريد الراحة . .

سألناه قائلين :

ـ ماذا يجب علينا أن نفعل ؟

قال :

ـ مسيركم على قدمين يقلق راحتي ، سيروا على قدم واحدة حجلاً لأعمل براحة . .

صدر قانون صار الناس بموجبه يسيرون على قدم واحدة حجلاً .

قال الرأس الأكبر :

ـ ما صار . ليس ثمة هدوء لأعمل . انبطحوا ، وازحفوا على يد واحدة ورجل واحدة!

وحسب القانون الصادر ، بدأنا ننحني إلى الأرض ، ونسير على يد ورجل .

لكن الدخان الأسود لم يتناقص ، بل ازداد ، عندئذ قال الرأس الأكبر :

ـ إنكم تقلقون راحتي . إذا لم تريحوني فكيف سأعمل ؟

ـ تفضل ، ماذا يجب أن نفعل ؟

قال الرأس الأكبر :

ـ لا يذهب أحدكم إلى هذه الجهة ، والثاني إلى تلك ، وأحد كم إلى الأعلى ، والثاني إلى الأسفل فهذا يُقلق راحتي . سيروا جميعاً في جهة واحدة .

قطر الجميع بعضهم بعضاً ، وبدأوا المسير .

قال الرأس الأكبر هذا وذاك . ونفذ كل ما قاله ، ولكن لم يرتح . كنا نؤمن أنه لو ارتاح سيخلصنا من الدخان الأسود . كنا نعمل ما بوسعنا من أجل تأمين راحته .

قال الرأس الأكبر :

ـ بينكم ثمة من يُقلق راحتي . هاتوهم لآكلهم . .

قلنا :

ـ لنضحي بشخص أو شخصين من بيننا في سبيل تخلصنا من الدخان الأسود . .

قدمنا له من يقلق راحته ، فأكلهم . وكلما التهم واحداً جديداً يصرخ :

ـ أنا قلق ، لم أرتح .

ـ من تريد ؟

ـ هذا . .

أكل الرأس الأكبر ، وأكل فلم يبق أحد . بقي من في القصر فقط . قال :

ـ إذا لم آكل هذا الوزير فلن أحصل على الراحة التي أريد .

ـ ليكن الوزير الذي تريد . يكفينا أن ترتاح ، وتخلص الباقين من الدخان الأسود .

راح الوزراء واحداً تلو واحد . وفي النهاية عندما أكل رأس الوزارة لم يبق أحد سواه إلا أنا . ولكن لأن الدخان الأسود تكاثف كثيراً فلم يرني . كان يقول الرأس الأكبر لنفسه :

ـ لم أرتح . الراحة! . . وبدأ يأكل أظافره . بعد هذا أكل أصابعه .

كان يقول لنفسه :

ـ لم أرتح .

مد فمه إلى جسمه وأكل قدميه ، ثم ذراعيه ، ثم ساقيه . بقي رأس وجذع مدمى ، كان يصرخ دون توقف :

ـ أريد الراحة!

وغرز أسنانه في جذعه ، وأكل نفسه ، أكل أضلاعه وكتفيه ، أكل نفسه لكنه لم ينهها . بقي هناك رأس مدمى فقط . كان ذاك الرأس المدمى يقفز من هنا إلى هناك ، ويصرخ قائلاً :

ـ أريد الراحة! . .

لم يعد يستطيع فمه الممتد إلى الفراغ أن يأكل ذاته .

مسكتُ الرأس من شعره . ونزلت إلى المدينة . نظرت ، وإذ لم يبق دخان أسود . كان ينبعث دخان خفيف من فمي . عندئذ فهمت الحقيقة . كان الدخان الأسود الذي يغطي الدولة ، هو دخاننا الأسود جميعاً . ولكن لأنه كان ينبعث من أفواهنا بشكل قليل فلم نَرَ دخاننا الأسود . وعندما يتجمع هذا القليل من الدخان الأسود المنبعث من أفواهنا يتكاثف ويغطي كل شيء .

حفرتُ هذه الأحداث على المسلة ليقرأها من يمر من هنا ، ولكي يتعلم الناس كيف يتخلصون من الدخان الأسود .

قبري أسفل هذه المسلة ، والرأس الذي لم يحصل على الراحة بجانبي .

لم تحصل «دولة الراحة ، على الراحة . .»

*

وهنا انقطعت الكتابة المحفورة على آخر مسلة .

الدبوس الضخم

يحكي الرجال العِتاق الذين رأوا الماضي ، وعاشوا الحاضر ، وعرفوا المستقبل عن أناس أسخياء أقوياء شرفاء عاشوا في يوم ما . أزواج نساء هذه الجماعة من نسب ، وجذر واحد ، شهوم شجعان من القتال لايكلون أو يملون ، وعن الصراع لايعودون ، ومعنى الخوف لا يعرفون ، وبإرادتهم يعيشون ، ومن هنا إلى هناك يرحلون ، ويضعون رحالهم حيث يشاؤون ، وينصبون خيامهم أينما يريدون . رجالهم ونساؤهم ، بناتهم وأولادهم ، أحفادهم وجدودهم ، كبارهم وصغارهم للخيل يمتطون ، وبالسيوف يتسلحون ، والسهول والجبال يجوبون ، وأحراراً يولدون وأحراراً يموتون .

راحت أيام وجاءت أيام ، برزت مجموعة شجعان من بينهم وضعوا في رؤوسهم فكرة التخلص من الترحال ، والسكنى في مكان ما مع ذويهم . ولكن لا تظنوا أن هذا أمر سهل . وهل من السهل إدخال هذا الكلام في عقول أناس لا يعرفون الوقوف أو المواقف ، المكان أو المنازل ، في السهول يقضون صيفهم ، وفي المغاور شتاءهم ؟

جمع أحدهم أبناء نسله وخطب فيهم :

ـ يا أبناء نسلي ، ونسبي ، يا أعزائي ورفاقي! . . تعالوا لنسكن مثل الآخرين . ولنتخذ لنا وطناً ، ولنؤسس بيوتاً ، ولنحول سهولنا إلى قرى ، وقرانا إلى مدن . .

حكى ، وحكى ولكن لم يقنع أحداً . وحسب قوانين تلك الجماعة فإن القوة العضلية مفضلة على القوة الفكرية لهذا عمل هذا الشجاع العرّاف دبوساً قضى في عمله أياماً طويلة . إنه دبوس رأسه بقدر رأس عملاق ، وطوله يناسب الرأس . . حول رأس الدبوس بروزات مدببة الرؤوس ، لو نزل هذا الدبوس فوق حي ، حتى لو كان هذا الحي سلطان العمالقة ، سيجعله مثقباً ويغوّره في التراب .

تدرب الشجاع الفطن على رفع الأثقال يومياً . بعد أيام صار يرمي حجر القنطار ويلقفه كما تُلعب (اللقيطة) . عندما تصلبت أضلاعه وصارت مثل الحديد حمل الدبوس واتجه نحو أبناء نسله ، وقال لهم :

ـ لامكان بعد الآن للأخذ والرد . في المكان الذي لا تسمع فيه الكلمة تُطاع العصا . ليجرب أحدكم ويعاكسني . أترون هذا الدبوس ، سأنزله على رأسه . وبعد إنزال هذا الدبوس على رأس أحدكم لن يبقى على الأرض جسمه ، أو اسمه . يا الله امشوا ، امشوا أمامي .

ومن سيكون معارضاً له ؟ . . كبير الشجعان هذا يلعب بالدبوس كما يلعب في ريشة الغراب .

كان بينهم من فأفأ ، أو كمكم ، أو تأتأ ، ولكن كبير الشجعان نزل بالدبوس على رؤوسهم فلم يبق لآكل الدبوس في الدنيا نَفَساً ، بل صار كرةً وطار . ثم إن الدبوس ، ياله من دبوس ، إذا ضُرب في مكان يسمع صوته من بعد مسير سبعة أيام بلياليها .

وضع النسل المذكور رحاله بجانب مجرى ماء ، وهناك سكن ، واتخذ من المكان وطناً . البيوت تأسست ، والأدوات والحاجيات صنعت ، والأعمال في مجراها سيّرت ، ولأمورهم أساليب نظمّت . المزارع ، قرى صارت ، والقرى إلى مدن تحولت . تكاثروا ، وتكاثروا ، وتوسعوا ثم تكاثروا . . قوانينَ صاغوا ، وإداريين اختاروا . . وكل عمل في نصابه وضعوا . واذا عارض أحدهم هذا النظام يلتقط كبير الشجعان دبوسه ، ويطلق

صرخته : «أبعدوا ولاه» . وينزل الدبوس على رأس المخرّب .

بفرض أن المخرب ليس شخصاً واحداً ، بل ألف شخص . لن يستطيع الوقوف في وجه الدبوس ليس ألف شخص فحسب ، بل مائة ألف . إذا لوح رأس الشجاعة بالدبوس يجعله يصفّر باصطدامه بالريح عندئذ يركّع جيشاً من العمالقة .

راح زمان وجاء زمان ، لم تعد تسعهم المدن والقرى . في النهاية أسسوا دولة . ووُضع رأس الشجاعة ، على رأس الدولة ، وسُميَ رأس القادة . بينما الأمور تسير على هذا النحو ، صارت الدولة لا تتسع لهم . تناول رأس القادة دبوسه وقال :

ـ أيها المحاربون ، أيها الشجعان ، اتبعوني! . .

تبع رأس القادة من تلقف سيفه ، وقفز على حصانه . ركعوا من يعيش في الدولة الجارة وتوسعوا فيها . وأخذوا كل ما أعجبهم وكان قيماً . وربطوا ذلك الشعب بضريبة وعادوا إلى مكانهم .

ولأنهم مدانون بكل هذه النجاحات للدبوس ، فقدسوه . ووضعوه دائماً وأبداً وفي كل زمان أو مكان في المقدمة . .

راح زمان وجاء زمان تمدد رأس القادة على فراش الموت وبينما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة نادى ابنه إلى جانبه ، وقال له :

ـ يا بني أنا أسست هذه الدولة بهذا الدبوس . والآن أترك لك هذا الدبوس المقدس . اعرف قيمة هذا الدبوس واستعمله . كن كما أنت ، ولا تستخف بالدبوس . إن هذا الدبوس يلبي كافة احتياجاتك .

عندما أكمل الأب أيامه وانتهى شغله ، جلس ابنه مكانه . ولكن بدأت هنا وهناك من الدولة تتردد مقولات : «كيف يجلس هذا الغر على رأسنا ؟» ، وحدثت انتفاضات .

لكن الشاب تناول الدبوس الموروث عن أبيه ، ولوح به في الهواء تماماً مثل أبيه ، وكما تعلم منه ، وهجم على المنتفضين . ومن يأكل ضربة

بالدبوس يصير غباراً أو دخاناً . تحولت تلك الدولة إلى مكان صامت أخرس .

بعد أن حقق الشاب الشجاع في الداخل السكينة ، والطمأنينة ، سار نحو الدولة الجارة . وسار إلى الدولة التي على الميمنة . وبعد أن دخلها وعلى مستوى الأرض جعلها . ربط من هناك بالضرائب أيضاً . وعاش يقظاً مستعداً ، وبالدبوس مسلحاً .

وبعد مدة من الزمان ، عندما صار عجوزاً ، ترك الدبوس لابنه ، وورَّثه مكانه . ومنذ ذلك اليوم والدبوس ينتقل من ولد إلى ولد . وصاروا يطلقون اسم : « سلطان » على من يمسك الدبوس .

راح زمان وجاء زمان ، خرج من بين السلاطين سلطان ، وقال :

ـ لا يليق بنا التقوقع والوقوف ، والانحلال والجلوس . سيصدأ دبوسنا . لنهجم على أعدائنا ونحرك دبوسنا ، ولنجدد حملات آبائنا . .

شنوا حملة على الدولة الجارة فوقهم . وكان سكان تلك الدولة قد أحاطوا دولتهم بحيطان سميكة لخوفهم . هذه الحيطان لا تعرف الهدم أو الثقب . كان السلطان يشد على نفسه ويشد ويشد ويهوي بدبوسه الضخم على الحيطان : بُم بم . وكأن الحيطان تقول له تعال إلي مرة أخرى ، لن تستطيع شيئاً . وقوف بعوضة على مؤخرة فيل مثل ضرب الدبوس على الحيطان .

ويصرخ السلطان :

ـ هيه يا سباعي ، هيه يا شجعاني! ألا يوجد في هذه الحيطان موضع فسخ أوباب ؟

غير موجود . ارتدوا عن تلك الحيطان دون أن يستطيعوا فتح ثقب بمقدار إصبعين . أسسوا هيئة استشارية . واستشاروا العلماء والحكماء عن « حقيقة هذا الأمر » خطب فيهم السلطان :

ـ يا علمائي وشيوخي وحكمائي . يا للدهشة من هذا الأمر ؟ أنا مثل

والدي تماماً أطلق الصيحات ، وأهجم بالدبوس . قوتي ليست أقل من قوة أجدادي ، وفطنتي ليست أقل من فطنتهم . لماذا صمدت حيطان أعدائنا في وجه دبوس أجدادنا ؟

قال رأس الحكمة :

ـ يا سلطاني ، شجاعتك شجاعة القدماء ، وفطنتك فطنة القدماء ، وقوتك قوة القدماء ، ودبوسك دبوس القدماء . ولديك زيادة عن آبائك وليس نقصان ، ولكن هذا الزمان ليس ذاك الزمان . ففي زمن أبيكم كان شبرين فقط سماكةُ الحيطان . والآن لخوفهم من سقوط الدبوس على رؤوسهم كبّروا عقولهم ، وإلى أربعة أشبار سمّكوا الحيطان .

بعد هذا ، قال السلطان :

ـ واخ ، واخ ماذا يعني هذا ؟ هل راح الدبوس من يدنا ؟

وبطح رأس الحكمة ممرغاً أنفه ، وبقوة ربطه ، فقال رأس الحكمة له :

ـ لا بأس عليك يا سلطان . نعمل دبوساً طوله ضعف طول هذا ، ووزنه ضعف وزن هذا ، وعدد أسنانه ضعف عدد هذا ، وإذا صَرختم صرخة تساوي ضعف صرخة والدكم ستصبح حيطان مدينة الأعداء تحت دبوسكم المقدس رملاً ، وتتطاير .

عُمِلَ بقول رأس الحكمة . مسك السلطان الدبوس من قبضته . لكنه لا يبدو أنه سيتحرك من مكانه .

ولهذا الأمر أوجد رأس الحكمة مخرجاً :

ـ اعتباراً من الغد . في اليوم الأول تأخذ كبشاً وترفعه ، خلال سبعة أيام تعتادون على رفع الكبش . بعدها تبدأون برفع عجل رضيع . بعد أن تعتادوا على رفع العجل مثل الريشة ، ترفعون عجلاً كبيراً ، بعد هذا ترفعون البقر والتيوس والثيران من قوائمها . ثم تحاولون رفع الدبوس .

عمل السلطان ما قاله رأس الحكمة حرفياً . بعد فترة من الزمن ، تصلبت أضلاعه ، وازدادت قوته إلى حد لو أنه أسند القصر الذي يسكن فيه

إلى ظهره ، وقال ياالله ، سيرفعه . عندما صار يرفع الدبوس الضخم بيده مثل العكاز صرخ قائلاً :

- أيها الشجعان! اتبعوني سنشن حملة .

ساروا نحو الأعداء . عندما أطلق السلطان صيحة ، ونزل بالدبوس على الجدران ، جعلها هباءً منثوراً . غزوا الدولة الجارة ، وربطوها بالضريبة ، وعادوا إلى وطنهم .

راح زمان وجاء زمان ، عندما جاء يوم أجل السلطان ، ترك الدبوس لابنه ، قال السلطان الجديد :

- لا يليق بنا تقطيع الوقت ، والتلوي على هوانا ، قبل أن يصدأ الدبوس لنهجم على أعدائنا . .

ساروا نحو الدولة الجارة تحتهم . . كلما قرع السلطان حيطان قلعة الأعداء بالدبوس كان يصدر عن الحيطان صوت كصوت نقر البطيخ والقرع الرومي بالاصبع ، ولم تتفسخ طوبة واحدة . ضربوا الجدران ، وضربوا ، وكأن الدبوس دقاقة تدق على باب ، والجدران لا ترد ولا تصد . التفتوا إلى ورائهم وعادوا إلى ديارهم . وبأمر من السلطان اجتمع علماؤهم وحكماؤهم ، وقال لهم :

- إيه أيها السادة! هل سنخسر السلطنة التي أسسها آباؤنا وأجدادُنا ؟ ما سر هذا الأمر ؟ كيف تقاوم حيطان قلاع العدو دبوسنا . عن آبائنا ماذا ينقصنا ؟ وما الذي عنهم يخلّفنا ؟

قال رأس الحكمة :

- يا سلطان! شجاعتك شجاعة القدماء ، وفطنتك فطنة القدماء ، وقوتك قوة القدماء ، ودبوسك دبوس القدماء . ولكن الحيطان ليست حيطان القدماء . كانت سماكتها عشرة أشبار أيام والدكم ، صارت اليوم عشرين شبراً . . . لنكبّر الدبوس طاقين ولنثقله ضعفين ، ولنذهب نحو الأعداء .

عملوا ما قاله رأس الحكمة . صار الدبوس جبلاً ضخماً . لا توجد قوة

تحركه . لو استطاع السلطان أن يلعب بالفيلة بدلاً من الكرات فلن يرفع الدبوس . إثر هذا ، قال رأس الحكمة :

ـ يا سلطاني! إذا مسكتم الدبوس من طرفه ، ومن الطرف الآخر يمسكه الصدر الأعظم والوزراء ، سترفعونه ، وتهوون به ، وتهوون ، وتنزلون به على حيطان قلعة الأعداء صارخين يا الله ، فستتفسخ الحيطان ، ويفتح الدبوس ثقباً تمررون الجيش منه .

عملوا ما قاله رأس الحكمة ، واستباحوا تلك الدولة ، وأسسوا هناك سلطة .

راح زمان وجاء زمان كبر الدبوس وكبر ، وانتقل من أب إلى ابن ، وبعد مدة صار لو كتبنا في حجمه كتباً لما اتسعت هذه الدنيا لهذه الكتب ، ومن ثقلها لتهدمت . وكلما سمّك الأعداء قلاعهم ، كلما كبّروا دبوسهم .

يحكي الرجال العتاق الذين رأوا الماضي ، وعاشوا الحاضر وعرفوا المستقبل عما حدث بعد هذا ثلاث حكايات مختلفة .

قسم منهم يقول : كبر الدبوس حتى غطى العالم . صار غير معروف من أين سيرفع ، وأين سيضرب . وما عاد بالإمكان تحريكه .

وقسم آخر يقول : صار يلزم لرفع الدبوس أعداد من الرجال لو اجتمعوا على الدبوس لما وجدوا فيه متسعاً لا لرفعه ، بل للمسه بأصابعهم .

أما الآخرون فيقولون : انقسم حملة الدبوس إلى قسم قاده السلطان ، وقسم قاده الصدر الأعظم ، وقسم قاده الوزراء . وصار ما صار ، وما عاد الدبوس ينفع بشيء .

قال السلطان متسائلاً :

ـ يالطيف! ما هذا الذي صار ؟ ماذا ينقصنا عن أجدادنا ؟

اجتمع العلماء والحكماء ، وقالوا :

ـ أنتم لا تنقصون بشيء عن أجدادكم . وهذا هو السيء في الأمر ياه . . شجاعتك وفطنتك وقوتك هي بالضبط شجاعة وفطنة وقوة القدماء . أما

الحيطان فما عادت حيطان القدماء . والزمان ما عاد سالف الزمان .

فقال :

ـ هل هذا يعني أن الدبوس ما عاد ينفع بشيء ؟ هذا يعني أن شغلنا انتهى . . .

بدأت الدول المجاورة تسترد الأجزاء التي كانت قد قدمتها جزءاً جزءاً . وصغرت دولة السلطان ، وصغرت . واستشاروا في أمر ما حدث ، واستفسروا عن نهايته . إذا لم يعد السلطان يستطيع استخدام الدبوس فما فائدته ؟ أسقطوه وأخذ مكانه مُسْقِطَهُ . أخذوا مكانه ، ولكن ماذا سيفعلون بالدبوس ؟

أحدهم قال :

ـ رمينا السلطان ، فلنرم دبوسه . .

لم يقتنع السامعون بهذا الكلام ، فقالوا :

ـ كيف نرمي هذا الدبوس المقدس الذي يحكي كل ذكرياتنا ، وماضينا الشهير ؟ إنه خصوصيتنا . كلما نظرنا إليه سنتأوه ، ونمتدح أنفسنا قائلين : « آه ، آه رحم الله تلك الأيام . . كان أجدادنا يُسمعون صوت الدبوس من كل مكان » .

راح السلطان ، وراحت السلطنة ، ولكن بقي دبوس السلطان . وأخذ من يعيش في تلك الدولة فكرة اخرى : أين سيضعون الدبوس ؟ بعضهم قال : « نضعه في المتحف » وبعضهم قال : « ننصبه في ساحة كبيرة » . فكروا بالأمر وقالوا :

ـ الأفضل أن نضع الدبوس في مكان يراه الجميع كل يوم ، ومن يرى هذا الدبوس التاريخي يتفاخر . .

علقوا الدبوس الضخم عند باب المدينة الكبيرة . ويقال إن الذين يعيشون هناك كانوا يدخلون ويخرجون يومياً من هذا الباب . ولكن لم ينته الأمر عند هذا الحد . فجأة سقط الدبوس فوق أحد المارة من تحته ، وسحق

الرجل . تعاونوا على رفع الدبوس ، وعلقوه في مكانه . بعد فترة أيضاً سقط الدبوس مرة أخرى فوق أحد المارة . ورفعوه مرة أخرى ولكي لا يقع مرة اخرى ربطوه بجنازير ثخينة . ولكن على الرغم مما فعلوه ، فما استطاعوا المحافظة على الدبوس في مكانه . كان الدبوس يقطع الجنازير ويسقط على رأس أحدهم . أزهق أرواحاً إلى حد صار يقال عن الذين سقطوا تحته : « ضحايا الدبوس » . لم ينجحوا بأي شكل من الأشكال بالتخلص من تقديم ضحايا الدبوس . بعد فترة فُهم السبب . لكثرة ما نزل على رأس هذا وذاك عبر هذه القرون تعود هذا الدبوس على هذا العمل جيداً . تظن أنه تحول إلى مخلوق حي . لا يستطيع الوقوف مكانه ، لابد أن ينزل على رأس أحدهم .

فكر الذين عبروا إلى مكان الذين أخذوا مكان ، وهم احتلوا مكان الذين جلسوا مكان السلطان القديم بإنهاء قضية تقديم القرابين للدبوس . لأن أعداد ضحايا الدبوس ازدادت إلى حد أن الناس في تلك الدولة صاروا يقولون : « نحن لانريد هذا الدبوس » . ولفت نظرهم أن هذه الأقوال تتزايد مع الزمن . كما أن التخلص من الدبوس لا يناسبهم . لأنهم إذا رموا الدبوس فلا يبقى لديهم ما يتأوهون له ويتفاخرون به . إنهم يستمدون كل قوتهم من خلال نظرهم إلى الدبوس وقولهم : « واخ ، كيف كنا نلوح بالدبوس على زمن آباء آباء آبائنا » . لو راح الدبوس لراحوا هم أيضاً كما راح السلاطين .

لو كان يُعرف على رأس من سيسقط الدبوس لهان الأمر . لكن الدبوس يثبت ، ويثبت ، فجأة يسقط على رأس أحد المضطرين للعبور من هناك . والجميع مضطرون للعبور من هناك . عندئذ فكروا ، وأمعنوا التفكير في الأمر ووصلوا إلى هذه النتيجة :

ـ سقوط الدبوس على رأس أحدهم لا بد وأن فيه حكمة . أيها المواطنون! هل تعرفون ما هي هذه الحكمة ؟ إن الدبوس الموروث عن آبائنا يسقط فوق المذنبين ويعفس رؤوسهم . إذا كان الدبوس قد عفس رأس

أحدهم فلا بد أن هذا الواحد مذنب .

صدق أغلب المواطنين هذا الكلام . ومنذ ذلك اليوم ، اذا سقط الدبوس ، وعفس رأس أحدهم يقولون :

ـ هذا هو المذنب . ونال عقابه! . .

حسنٌ ، جميلٌ ، وُجِد المذنب ونال عقابه ، ولكن ماهو ذنبه ؟ هذه المرة صار عليهم إيجاد ذنب للمذنب . لم يكن من الصعوبة كثيراً إيجاد الذنب . لأنه كيفما كان يوجد ذنب لكل من يسقط عليه الدبوس ويموت . ينظرون إلى قربان الدبوس ويقولون :

ـ آ آ آ . . انظروا إنه طويل جداً . . لهذا السبب عفسه الدبوس .

ينظرون إلي ضحية دبوس أخرى ويقولون :

ـ لم ينزل الدبوس على رأسه لـلا شيء . . إنه أسمر ، وهذا هو السبب .

كان ذنب بعض من سحقهم الدبوس السمنة ، وبعضهم النحول ، وبعضهم شقرتهم ، وبعضهم النظارة ، والبعض الآخر عدم تسريح شعرهم .

كان ذلك الدبوس يساعد على إيجاد المذنبين في تلك الدولة . يجد المذنب أولاً ، ثم يجعله يدفع حياته ثمن ذنبه . وفيما بعد يبحث عن ذنب مناسب .

راح زمان وجاء زمان . . بانت نهاية الحكاية لكم .

يقال إنه كان يوم احتفال كبير ، وتلقى الكلمات تحت الدبوس . فجأة سقط الدبوس ولكن أتعرفون ماذا جرى بعد هذا ؟ رفعوا الدبوس ، وعلقوه مكانه .

حكاية معاصرة

كان يا ما كان . في يوم كان ، وفي خمسة ما كان . . كانت الحاجات غير موجودة والأذيال كثيرة . كان في إحدى دول هذه الأرض شقة صغيرة . يسكن فيها رجل محدود دخله . ولأن الرجل لم يستطع دفع أجرة بيته رمى موظفو الحجز من البيت أغراضه وزوجته وأولاده . دَهِشَ الرجل عندما وجد نفسه فجأة وسط الشارع مع عائلته . فتح كلتا يديه وتوسل إلى ربه ليساعده . ثم حمل نفسه وخرج من مدينته وتجول في ضواحيها القريبة . وهناك رأى أراضي خاوية على مد بصره . قال لنفسه :

ـ لأعمل بيتاً من صفيح وأخشاب هنا أؤي فيه أولادي . .

كان قد بقي لديه عدة قروش ، وباع بعض أغراضه المهلهلة ، وبالنقود التي تجمعت بين يديه عمل البيت بغرفتين في أقرب أرض فارغة إلى المدينة ، وسكن مع عائلته . كل يوم كان يذهب ماشياً من هذا البيت إلى عمله . وما كان ينقطع عن الدعاء والحمد لربه على هذه المساعدة .

وفي يوم من الأيام طُرق بابُهُ في ساعة متأخرة من الليل . فتحه فرأى رجلاً غريباً قال له :

ـ طردوني من البيت لأنني لم أستطع دفع أجرته . إيجارات البيوت في المدينة غالية . سمعت أن لديك غرفتين . هل تؤجرني إحداهما بسعر رخيص ؟

أجَّرَ الرجل للغريب بسعر رخيص إحدى الغرفتين . وجمّع ما حصل عليه من أجرة وعمل اثنتين أخريين وأجرهما بسعر رخيص لآخرين . وكلما ازداد دخله من الإيجار كان يزيد من ذكر الله بدل المرة اثنتين .

بعد مدة لم يعد بيت الصفيح والخشب يتسع للرجل ، فقال لنفسه : «لأعمل بيتاً أكبر للعائلة» هذه المرة لم يعمل بيتاً من الصفيح والخشب ، بل بنى بيتاً بثلاث غرف في طابق واحد . وخرج من البيت الصفيحي الخشبي وانتقل إلى هذا ، وأجّرَ ذاك .

راح زمان وجاء زمان ، طلع فوق البيت الذي يسكنه طابق ثان . أجر الطابق السفلي وانتقل إلى العلوي . لم يكن يتوقف عن الدعاء للرب الذي حماه .

وبنقود الأجرة أنشأ إلى جانب بيته واحداً أكبر منه هذه المرة . وأجره ثم ترك عمله . ومن إنشاء البيوت وتأجيرها أمن عمله .

وفي أحد الأيام طلع له رجل وقال :

ـ هي ملكي هذه الأراضي التي تبني بيوتاً عليها ، وها هو سندها .

قال الرجل :

ـ أنا لست سيئاً ، ولا أريد أن أسكن فوق مال أحد . بعني هذه الأرض إذا أردت! ولان الأرض بعيدة عن المدينة ، وهي كلسية لا تصلح للزراعة ، باعها صاحبها بسعر بخس ، بعد مدة من الزمن قالت زوجة الرجل :

ـ ابن لنا بناية نسكن فيها!

بنى الرجل بناية بخمسة طوابق ، في كل منها خمس غرف . وأجرها . وصار المكان هناك يكبر من يوم إلى يوم ، ويتوسع ويتطور . صار حياً . وانتخبوا له مختاراً . عمل المختار وبذل جهداً . وتحمل صعاباً . وفي النهاية جلب إلى الحي ماءً . بعد هذا قدم السكان معروضاً ، طلبوا كهرباءً . وبعد زمن وصلت الكهرباء أيضاً .

صار الرجل لا يبني البيوت والبنايات عشوائياً ، بل يجعلها منسقة

ومنظمة وشق بينها طرقاً ، وأزقة ، وعمل دكاكين ، وفتح أسواقاً .

كل يوم يزداد الرجل غنى . لكنه لم يخرج إيمانه بربه من قلبه لحظة . ولا يتوانى عن ذكر الله كلما شهق نفساً .

صار الرجل مسناً ، ففكر قائلاً :

ـ صار لي قدم في الحياة وأخرى في الممات . ولا ينقصني شيء من المشتهيات ، وكثيرة لدي الليرات ، فلماذا لا أبني جامعاً وأزيد من الحسنات .

من ناحية النقود ما توانى في صرفها . خَرَجَ حرجاً منها . وفي أجمل أمكنة الحي بنى جامعاً . خلال ثلاث سنوات أنهاه . وما ترك شيئاً ينقصه . له صحنه ، ونبعه ، وحنفياته وغرفه . . صار جامعاً متلألئاً . وقال عنه العارفون في الأعمال الفنية والنصب : «إنه أثر ضخم» .

ومع الزمان توسعت شهرة المكان . وفي يوم من الأيام جاءت إلى الحي خمس سيارات ، لوحاتها رسميات دَهِشَ الرجال عندما نزلوا ورأوا الجامع ، فقالوا :

ـ يالله ما أروع هذا الجامع! . .

قال أحدهم :

ـ إن كان على الروعة فهو رائع ، ولكن يا للأسف على روعته ، إذ تخفيها البيوت والبنايات ، وسترها يخنقها . لتهدَمَ هذه الأبنية فوراً ، وليبرز الجامع وليظهر جماله حالاً . .

وفي الصباح التالي جاء الهدامون وآلات الهدم والشاحنات . وهدموا كافة البيوت المجاورة له والبنايات وأزيلت من حول الجامع الساترات . وبرز الجامع بكل مافيه من سمات .

هم نالوا مرادهم ، ولنقع نحن على الخفيسة .

بذرة التين

كان يا ما كان ، في قديم الزمان ، دولة «لها اسم ، وليس لها كسم» ، لهذه الدولة نظام حكم «له كسم وليس له اسم» . ويعيش في الدولة التي «لها اسم ، وليس لها كسم» أناس «لا موجودين ولا غائبين» في ظل حكم «له كسم وليس له اسم» .

في يوم من الأيام ، في الدولة التي «لها اسم وليس لها كسم» ، وفي ظل الحكم الذي «له كسم وليس له اسم» ، بدأ أحد الناس «اللاموجودين ، واللاغائبين» يتمتم : تم تم ، تم تم . لم يكن يُفهم مايقوله . مُطرق رأسه ويتمتم دون توقف تم تم ، تم تم .

ولأنه في الدولة «التي لها اسم وليس لها كسم» ، وفي ظل النظام الذي «له كسم وليس له اسم» يمنع منعاً باتاً كافة أنواع التمتمة المحلية والأفرنجية . قبضوا على المتمتم وطالعوه إلى قدام القاضي .

سأله القاضي :

ـ ماذا تعمل ؟

قال الرجل :

ـ أتمتم مع ردن كمي .

قال القاضي :

ـ كافة أنواع التمتمة ممنوعة ، إن كانت مع ردن كمك ، أو طربوش

رأسك . ليجتمع الناس في الساحة الكبرى ، وليُضرب هذا الرجل وسط الناس مائة عصا على مؤخرته .

ـ واحد . .

قالوا ، وضربوه بالهراوة .

ـ اثنان

قالوا ، وضربوه . مع استمرارهم بالضرب كان الرجل يتمتم تم تم ، تم تم .

لم يتمالك نفسه كبير الجلادين فقال :

ـ ما هذا يا مواطن ؟ ما سر هذا الأمر ؟ . . تأكل الهراوات ولا تتوقف عن التمتمة . ما سر هذا الأمر ؟

رفع المضروب بالهراوة رأسه ، وقال :

ـ ماذا أستطيع أن أفعل ؟ ، ما بيدي حيلة . .

سأله كبير الجلادين :

ـ حسنٌ . لماذا تتمتم ؟ ما التم تم ، تم تم التي تتمتمها ؟ قل لنفهم نحن أيضاً! قال الرجل :

ـ أتمتم قائلاً لنفسي : «ما اسمه ، مااسمه ؟»

توقف كبير الجلادين ، وأسند ذقنه على الهراوة ، وأطرق مفكراً :

ـ نعم ، هذه هي الحقيقة يامواطن . والآن جرفني القلق أنا أيضاً . .

وقال لنفسه «ما اسمه ، ما اسمه ؟» ، ثم رمى كبير الجلادين هراوته من يده وبدأ يتمتم :

ـ ما اسمه ، ما اسمه ؟

أحاط المتجمهرون في الساحة بكبير الجلادين ، وقالوا له :

ـ بماذا تتمتم يا كبير الجلادين ؟

ـ ما اسمه ، ما اسمه ؟

قال المتجمهرون هناك : «صحيح ياه» ، وصاروا يتمتمون :

ـ ما اسمه ، ما اسمه ؟

ثم بدأ عامة الناس يتمتمون : « ما اسمه ، ما اسمه ؟ »

جُمع هؤلاء جميعاً ، وجُلبوا إلى قدام القاضي .

سألهم القاضي :

ـ بماذا تتمتمون ؟

قالوا :

ـ ما اسمه ، ما اسمه ؟

جمع القاضي أطراف جبته ، ونط قائلاً :

ـ هذه هي الحقيقة . ما فكرت في هذا قبل الآن . ما اسمه ، ما اسمه ؟

تدافع الجميع نحو الشارع ، وبدأوا يتمتمون :

ـ ليسموه! ما اسمه ؟

ـ ليقولوا لنا اسمه! ما اسمه ؟

ـ ماسمه ، ما اسمه ؟

سأل السيد رأس الرؤوس القابض على النظام الذي : «له كسم وليس له اسم» في الدولة التي «لها اسم وليس لها كسم» :

ـ ما هذه التمتمة تم تم ، تم تم .

قالوا له :

ـ ما اسمه ، ما اسمه ؟

قال السيد رأس الرؤوس :

ـ التمتمة أمر سيء ، يوصل الإنسان إلى نهاية شنيعة . اقعطوا التمتمة! . .

ولكن المتمتمين قالوا :

ـ قل اسمه! سمّه! عندها لن نتمتم . . وإلا سنتمتم . ماسمه ، ما اسمه ؟

رأى السيد رأس الرؤوس أن هذا وضع لا يحتمل ، وأن التمتمات لن

تنقطع . واحتار فيما يفعله .

ويحكى أنه كان بأمر السيد رأس الرؤوس خمسة جان . عندما يقع في مأزق يستدعي أحدهم ويستشيره . استدعى الجني الأول ، قال له :

ـ رحماك يا جني ، يا روحي الجني . الكل يتمتم تم تم ، تم تم . يقولون : « ماسمه ، ماسمه ؟ » دخيلك اقترح علي سبيلاً لقطع هذه التمتمات .

قال الجني :

ـ لا تقلق يا سيد رأس الرؤوس . كما تريد . نطلب منهم مالا يمكن فعله . ونقول لهم : « إذا عملتم هذا نقول لكم اسمه » .

سأله السيد رأس الرؤوس :

ـ ماهو هذا الذي لايمكن فعله ؟

ـ ليعملوا قصراً قبل فجرالغد . جدرانه فضية ، وسقفه وفرشه ذهبية .

فرح السيد رأس الرؤوس . جمع المتمتمين ، وقال لهم :

أنتم تسألون عن اسمه . حسنٌ ، إذا عملتم لي قبل فجر الغد قصراً جدرانه فضية وسقفه وفرشه ذهبية ، سأقول لكم اسمه .

إنه عمل لا يعمل لا في يوم ، ولا في عشر سنوات ، ولا في عشرين سنة . في الحقيقة توقفت التمتمات . ونام السيد رأس الرؤوس نوماً عميقاً في تلك الليلة . عندما استيقظ في الصباح نظر من النافذة ، فماذا رأى ؟ رفرفت أجفانه لما رآه . أمامه قصر . عندما تنزل أشعة الشمس عليه تتلامع جدرانه الفضية ، وسقفه الذهبي . فالناظر ترف له أجفانه وهو أجمل مما أراد بكثير .

عاد الجميع إلى التمتمة :

ـ سمه ، سمه!

ـ ما اسمه ، ما اسمه ؟

ـ قل اسمه ، ما اسمه ؟

استدعى السيد رأس الرؤوس الجني الثاني . قال له :

ـ رحماك يا جنيَّ ، يا روحي الجني . . . جدلي طريقا ، أودلني على أسلوب لقطع هذه التمتمات :

قال الجني الثاني :

ـ ما صار موقع القصر مناسباً . ليحملوه قبل فجر الغد من الشرق إلى الغرب . عندها تقولون لهم عن اسمه . إنه عمل يستحيل عمله . . ليس حتى الغد بل ولا حتى بعد خمس سنوات . .

قال السيد رأس الرؤوس للمتمتمين ، ما قاله الجني الثاني . هدأت التمتمات . ونام السيد رأس الرؤوس تلك الليلة دن انقطاع . عندما استيقظ في الصباح ، نظر من النافذة ، وإذ بمكان القصر الذي أنشىء البارحة فارغ يعج فيه الغبار . ونظر من النافذة المقابلة لتلك ، فماذا رأى ؟ . . أما انتقل القصر الفضي والذهبي الذي كان البارحة في ذاك الطرف إلى هذا الطرف ؟! . . وعاد الناس إلى التمتمة : «ما اسمه ، ما اسمه ؟ ضع لهذا اسمه! »

دهش السيد رأس الرؤوس واستدعى الجني الثالث :

ـ رحماك يا جنيَّ ، يا روحي الجني . اقطع لي هذه التمتمة!

قال الجني الثالث :

ـ بسيطة . اطلبوا منهم ما هو مستحيل ، ليعملوا حديقة قبل صباح الغد . ولتكن الحديقة مترامية أطرافها بحيث لا تُرى . بِرْكَتُها من ذهب ، أسماكها من فضة . ويجري العسل في ودیانها ، وليتدفق الدبس من ينابيعها . ولتحمل كافة أنواع الثمار أشجارها ، ولتجمع كافة الأزهار المعروفة على الأرض فيها .

قال السيد رأس الرؤوس هذا للمتمتمين . وفي الصباح التالي تأسست حديقة ُأفضل مما طلب السيد رأس الرؤوس . حديقة لا مثيل لها . مرة أخرى عاد الناس الى التمتمة :

ـ ما اسمه ، ما اسمه ؟

استدعى السيد رأس الرؤوس الجني الرابع ، وهذا أيضاً قال :

ـ قبل الغد ، لتكن الفصول الأربعة موجودة في الحديقة في آن واحد . لا يمكن لهم عمل هذا .

نظروا في الصباح التالي ، وإذ بالصيف في أحد أطراف الحديقة ، والخريف في طرف ، والربيع في جهة ، والشتاء مثلج في جهة أخرى ، الورود متفتحة ، والبلابل مغردة ، والذئاب على الثلج متمرغة . في هذه الجهة أشجار الكرز مزهرة ، والسفرجلات ناضجة ، والتينات معسّلة في الجهة الأخرى . تضحك السفرجلات ، وتبكي الرمانات ، والدم يقطر من القرنفلات . والجليد يربط الأغصان اليابسات . في هذا الطرف تقول : «أوف ، شوب» وفي ذاك تقول : «أح ، جمدت» .

بدأ الناس يتمتمون :

ـ ما اسمه ، ما اسمه ؟

نادى رأس الرؤوس الجني الخامس ، وقال له :

ـ أنت أملي الأخير!

قال الجني الخامس :

ـ بسيطة . . ليجلبوا قبل صباح الغد أربعين فتاة من أجمل جميلات العالم . بشرتهن لم تر الشمس . لا عيب فيهن ولا نقص . ولتتفتح الورود حيث يطأن ، وليجر الدم أينما مررن . ولينعقد لسان ، ويتوقف قلب من ينظر إليهن .

طلب السيد رأس الرؤوس هذا من المتمتمين . قال بينه وبين نفسه : «لا يستطيعون عمل هذا مهما كان»

استيقظ في الصباح التالي ، فماذا رأى ؟ . . على يمينه عشر ملكات جمال ، وعلى يساره مثلهن ، وأمامه عشرة منهن ، وخلفه أجمل منهن . وكقطع القمر كأنهن . . .

بدأ الناس بالتمتمة مجدداً :

ـ ما اسمه ، ما اسمه ؟

اجتمع لديه الشياطين ، وقالوا :

ـ نحن عجزنا .

لم يبق ما يمكن طلبه . وكلما استمرت التمتمات تنسد شهية رأس الرؤوس للطعام والشراب . وما عاد دخل النوم إلى عينيه ، واصفرّ ، وذبل ، وأصبح مثل خيط الإبرة .

في أحد الأيام بينما كان رأس الرؤوس يطرق مفكراً ، جاءه عالمه الخاص ، وقال له :

ـ يا سيد رأس الرؤوس! إني أراك مهموماً . ما هو همك ؟ لماذا تفكرون بهذا الشكل ؟

قال السيد رأس الرؤوس :

ـ اذهب إلى شغلك! ألا تسمع هذه التمتمة ؟

قال العالم :

ـ أنا أوقف هذه التمتمة!

ـ خمسة جان ما استطاعوا إيقافها . كيف ستوقفها أنت ؟ . . اغربْ عن وجهي!

قال العالم :

ـ إن جانك الخمسة أخذوا مني دروساً كل يوم خمس ساعات . يا سيدي رأس الرؤوس جرِّبوا ما سأقوله أنا . .

قال رأس الرؤوس :

ـ احك! .

قال العالم :

ـ اطلبوا اليهم جمع التين عن أشجاره ، وإخراج بذوره . وأعطوا كل متمتم بذرة . إذا استطاع المتمتمون إملاء بذور التين عندها تخبرونهم عما

يسألون .

قال رأس الرؤوس :

ـ يالما فعلوا! ألن يستطيعوا ملء بذرة تين ؟! . . ولكن لنجرب . .

أعطو بذرة تين لكل متمتم : «ما اسمه ، ما اسمه ؟» يعيش في ظل حكم «له كسم وليس له اسم» في الدولة التي «لها اسم ، وليس لها كسم» وقالوا له :

ـ إملأ بذرة التين هذه ، ونقول لك اسمه . .

قال المتمتمون بفرح :

ـ ما أسهل هذا ، الآن نملأها ونأتي . .

ـ ولكن ستملؤونها تماماً .

ـ أمركم .

لم يكن لدى السيد رأس الرؤوس أي أمل ، ولكن التمتمة انقطعت . يوم ، يومان ، خمسة أيام . سنة ، سنتان ، خمس سنوات . . ليس ثمة تمتمة .

بدأوا بملء بذور التين . ملأوها ، وحشوها ، وأدخلوا ما استطاعوا فيها ، ولكن ولا بأي شكل لم يمتلىء فراغها . أدخلوا فيها أعراس الملوك والأمراء وعلاقاتهم السرية فما ملؤوها . بالقيل والقال عبأوها فما امتلأت .

بقي القليل لتمتلىء ، يالله كادت تمتلىء . ولانهماكهم بملئها لم يجد أحد منهم فرصة للتمتمة : «ما اسمه ، ما اسمه» .

مر على هذا الأمر أكثر من عشر سنوات . خرج السيد رأس الرؤوس بجولة ، وقال :

ـ لنر ماذا يفعلون ، وبما هم منشغلون ؟

كانوا لم يملؤوا واحداً بالألف من بذور التين بين أيدهم . في النهاية دخلوا بأنفسهم في داخلها فلم تمتلىء .

لم تمتلىء بذور التين ، ولكن انقطعت تمتمة المواطنين

« اللاموجودين ، واللاغائبين » العائشين في ظل نظام « له كسم وليس له اسم » في الدولة التي « لها اسم وليس لها كسم » .

ولم يبق شخص واحد يسأل : « ما اسمه ؟ »

هم نالوا مرادهم ، ولندخل نحن إلى بذرة تينهم .

طليعة تحت الذيل

كان يا ما كان في قديم الزمان ، سرب من الأسماك يعيش في حفرة صخرية في قعر البحر ليس في قديم الزمان فقط ، بل في كل زمان تعيش أسراب من الأسماك في حُفرٍ صخريةٍ في قعر البحار . ولكن السمكة التي نحكي عنها حكاياتنا ، لا تشبه أسماك كل زمان . كانت بالشكل مثل بقية الأسماك ، ولكنها بالعادات تختلف عنها كثيراً . كانت سمكة جريئة ، شهمة ، كريمة . دمها يغلي فلا تستطيع الوقوف بمكانٍ . تلعب في قاع البحر أينما شاءت . كان لها عادة تأتيها على شكل نوبة . والأهم من هذا فهي تشعر بضيق المكان الذي تعيش فيه . كانت تريد الذهاب إلى الأمام ، وإلى البعيد ، لتتعرف على ما يحدث هناك .

وكان ثمة سمكة أخرى في ذلك السرب الذي يعيش في حفرة قاع البحر الكبيرة . وكانت هذه عكس تلك ، كسولة ، مطيعة ، هادئة . كانت لا ترغب بتحريك نفسها . تحسب حساباً من أجل زحزحة ذيلها ، وتتعب من حركة زعانفها . ولأنها كسولة جداً ، كانت لا تترك أسفل ذيل تلك السمكة الشهمة الجريئة . لأن السمكة الجريئة عندما تقذف قاذوراتها من مؤخرتها ، كانت السمكة الكسولة تبتلعها ظناً منها أنها طعام . وهكذا وجدت طريقة سهلة لتتغذى . فصارت قاذورات السمكة الأمامية مصدر غذاء سمكة تحت الذيل .

وغير هذا ، لا تواجه سمكات تحت الذيل أية صعوبة في عملية اختيار الطريق في البحر . كانت السمكة الأمامية هي التي تواجه تيار الماء وتشق الطريق . بينما سمكة تحت الذيل تمر من المكان الذي تفتحه السمكة التي تشق الماء .

إذا اعترضهما عارض فالسمكة الأمامية تتجاوز العارض ، وتزيله ، وتعيش سمكة تحت الذيل دون مشقة . إذا حدث خطر ما ، فالسمكة التي ستقاتل هي سمكة المقدمة . إذا أراد سرب السمك أن يرتاح في مكان ما ، تتهيج السمكة الجريئة القوية الكريمة ، وتهبط من الأعلى إلى الأسفل ، وتصعد ثم تعود تغوص من أسفل السرب ثم من فوقه ، فتماو ج البحر تخربط المكان ، وتبث الحيوية في البقية .

كانت سمكة جريئة قوية كريمة ، عيناها متلامعتان ، حراشفها برّاقه ، زعانفها رجّافة .

في أحد الأيام ، تعلقت بفكرة مفادها :

ـ أنا تضايقت من هذه الحفرة الصخرية ، سأذهب بعيداً وأعرف ما يجري ، وما يدور من حولي .

قالت السمكات الأخريات :

ـ الأماكن البعيدة مخيفة .

ـ السمكة التي تخرج عن السرب تبتلعها السمكات الكبيرة .

ـ لاتأتينا بجديد على ما تعودنا عليه .

ـ هذا مكان مسقط رأسنا ، ورأس أجدادنا . هنا فقسنا ، وهنا كبرنا .

ولكن مهما قالوا فلم يقنعوا هذه السمكة الجريئة والقوية الكريمة ، والمشاكسة . إذ أنها تعلقت بقول :

ـ لا بد أن أذهب إلى الأماكن البعيدة .

خرجت من الحفرة الصخرية . هي خرجت ، ولكن ماذا جرى لسمكة تحت الذيل ؟ كل هذا الزمان لم تنفصل عن تحت ذيلها . إذا ذهبت تلك

فماذا ستفعل هذه وحدها في هذه الحفرة الصخرية ؟ فلن تجد طعاماً تتغذى ، ولن ترتاح ، وستسند رأسها إلى هذه الحفرة . . فلا تستطيع شق طريقها لنفسها ، ولا تستطيع إشباع بطنها . شاءت أم أبت هي مضطرة للتعلق بذيل السمكة الجريئة القوية ، والذهاب إلى الأماكن البعيدة .

في النهاية خرجتا ، وجابتا أماكن البحر العميقة والرقيقة ، الرملية والطحلبية ، الصخرية الساحلية ، ياالله ، ما أجمل هذه المناطق البعيدة ، يالجمالها . . لماذا بقيت الأسماك مغلقة على نفسها حتى الآن في تلك الحفرة الصخرية السوداء ؟ لماذا ؟

كانتا تتنزهان ، ولكن لم تكن نزهتهما سهلة . أحياناً ، كانت تنشب بعض المعارك الدامية بين سمكة المقدمة ، وبعض الأسماك الحادة الأسنان ، والإبرية الزعانف . كانت تتعرض لهجمات السمكات الكبيرة . حدث عدة مرات أن تصارعت مع عدة سمكات في آن واحد . وإذا خرجت أمامها أسماك كبيرة جداً ، كانت تُتَوّهُها وتتخلص منها . كانت تصاب بجروح أو رضوض لكنها في النهاية تتخلص . وبينما كانت هي تعمل وتكدح ، وتجابه ، وتقاتل ، كانت سمكة تحت الذيل ، ولشدة خوفها تختبىء أكثر تحت الذيل وتحتمي به . ولأنها تتغذى دون تعب أو عمل ، فانتفخت وسمنت . صارت سمكة ضخمة . أما السمكة الأمامية ولأنها كانت مضطرة لإزالة العوائق من أمامها من جهة ، ولإيجاد الغذاء من جهة ، وللمحاربة من جهة أخرى فلم تكن تسمن أبداً . ولكن تزداد قوتها ، ويتصلب حسكها .

بعد أن تنزهت السمكة الأمامية في بيئة واسعة ، وعرفت جيداً أحجارها وحصاها وطحلبها ، عادت إلى مكانها ، إلى الحفرة الصخرية التي تسكنها سمكات قطيعها ، وقالت لهن :

ـ أنا اكتشفت أمكنة جديدة ، تعالين لا تخفن ، وعلى الطريق سأدلكن .

أما سمكة تحت الذيل التي سمنت خمسة أضعاف على ما كانت عليه

لتغذيها بالقاذورات ، أرادت أن تبتدع لنفسها مصدر فخر ، فكانت تبربر دون توقف :

ـ آه من تلك الأمكنة التي وجدناها ، آه من تلك الأمكنة . .

خرج سرب السمك من الحفرة الصخرية ، وتبع السمكة الجريئة القوية نحو الأماكن المنفتحة . وفرحت السمكات وقلن : «يا الله ، ما أحلى هذه الأماكن ؟» . وأطلقت اسم «طليعية» على السمكة التي وجدت هذه الفرجة .

وبعد مدة من الزمان صارت الأماكن التي وجدتها الطليعية ضيقة عليها . فتعلقت بفكرة :

ـ أنا صرت متضايقة من هذا المكان ، سأذهب إلى الأماكن البعيدة ، وأرى مافيها . . .

وإذا كانت سمكات السرب قد قالت لها : «قومي ، حطي ، لاتعملي ، تكفينا هذه الأمكنة التي اعتدنا عليها وتزيد» ، ولكن لم تقنعها .

حملت نفسها السمكة الطليعية ، وانفتحت على البحار . وكانت سمكة تحت الذيل مضطرة إلى اللحاق بها لتتغذى دون مقابل بقاذوراتها .

غاصت السمكة الطليعية إلى أعماق أكبر في البحر . تنزهت وتجولت . لم تكن هذه النزهة سهلة . لفها أخطبوط ، فتخلصت من ذراعه . سقطت في الشباك فثقبتها وهربت . كادت أن تقع في الصنارة ، لكنها خطفت الطعم وتخلصت من الإبرة .

بعد أن تعلمت كل هذا عادت إلى صديقاتها . وقالت :

ـ ياالله! تعالين وجدتُ أمكنة أحلى ، سأدلكن عليها .

كانت سمكة تحت الذيل ، قد سمنت ، وازداد وزنها . صارت سمكة ضخمة ، ضخمة جداً . كانت تغطي ببربرتها على السمكة الطليعية :

ـ آه من تلك الأمكنة التي وجدناها ، ما أحلاها . . آه من تلك الأمكنة . . في الحقيقة أنا وجدتُها وهي ساعدتني . .

انطلقت سمكات السرب إلى مكان أوسع . فرحن كثيراً . لكن السمكة الطليعية أصرت مرة أخرى على رأيها :

ـ سأذهب إلى أمكنة أبعد وأبعد .

وفعلت ما قالت . ولم تغادر سمكة تحت الذيل مكانها . وبأكل القاذورات صارت سمكة ضخمة ، ضخمة جداً ، ضخمة جداً جداً .

عادتا إلى صديقاتهما في السرب . هذه المرة بدأت سمكة تحت الذيل بقول :

ـ لولا كنت وراءها ، من الصعب عليها اكتشاف هذه الأمكنة . أنا كنت من ورائها فاتكأت علي . وإلا فما الذي تستطيع عمله وحدها .

وهكذا استمر هذا العمل . السمكة الطليعية تذهب إلى الأماكن الأبعد . تتعرف على تلك المناطق ، وتأخذ صديقاتها . وسمكة تحت الذيل تسمن على أكل قاذوراتها . ورويداً رويداً بدأت تغيّر أسلوب كلامها :

ـ هي ما عملت شيئاً . أنا من أقام وأقعد ، وأسس وخرب ، ودل على الطريق وفتحه . .

ـ لو كنت مكانها لما ذهبت من هناك . راحت خطأً . . أنا لا أوافقها في رأيها .

ـ هذه هي الحقيقة . .

ـ إيه ، وهل هي عملت شيئاً . . لن يبقى لها اسم في تاريخ السمك . لن يذكرها أحد .

ـ غداً ستُنسى ، ولن يبقى لها ذكر . .

ـ أنا التي اكتشفتُ كل ما اكتُشفَ .

بينما كانت سمكة تحت الذيل تقول هذا ، كانت السمكة الجريئة القوية الكريمة تذهب إلى أماكن أبعد ، وتكتشف أماكن أجد ، وتأخذ صديقاتها إلى هناك ، وتوسع آفاقها من جهة ، وآفاق صديقاتها من جهة أخرى .

في يوم من الأيام خرجت السمكة الطليعية لاكتشاف أمكنة أكثر جدة . فكرت سمكة تحت الذيل قائلة : « إذا ابتلعتها سيكون خيراً » كانت تستطيع ابتلاعها . نتيجة أكل القاذورات كبرت ، وتضخمت ، وصار ليس من الصعب ابتلاعها . صارت أمامها مثل نقطة السمكة التي كانت تحتمي تحت ظلها فيما مضى . إذا أكَلَتْها ، وبَلَعَتْها ، سيدخل في تاريخ الأسماك اسمها . وبعد هذا تستطيع تشويه سمعتها ، والاستخفاف بها ، وعدم اعتبارها . .

وانطلاقاً من هذه الفكرة شرقت شرقة جرت السمكة الأمامية إلى جوفها . ثم بقيت وحيدة في أعماق البحار . وفهمت الخطورة التي أحاقت بها بعد أن بقيت وحدها . لم تكن تعرف من أين تذهب وكيف . لا يوجد من يدلها على الطريق . كانت تتعثر بالقواقع ، وتعصى بين الطحالب . كما أنها لا تعرف المحاربة ، ولا حول لها ولا قوة . والأسوأ من كل هذا ، أنها جاعت . لم يكن أمامها سمكة تقذف قاذوراتها . ولشدة جوعها ذابت . وذابت ، وخمدت مثل بالون غرز فيه إبرة ، ثم ماتت .

مع هذا دخل اسمها تاريخ الأسماك : « طليعة تحت الذيل »

وكان اسم الأخرى في تاريخ الأسماك : « طليعة »

كانت سمكة تحت الذيل مدينة ببقاء اسمها ، وعيش شهرتها « للطليعية » ففي البداية تذكر « الطليعية » ، ثم يُقال : « كان يوجد تحت ذيل الطليعية ، سمكة طليعية تحت الذيل » .

« في العلم والفن والسياسة ، وأينما كان ، وجود المخلوقات التي تسير في مياه أسفل الذيل مرتبط بوجود الطليعة » .

صراع الباذنجان

في عام ٢٨٢٨ تحدث الناطق باسم حزب المعارضة لدولة فارتفيكا ، إحدى دول جنوب قارة ضالاشيا على النحو التالي :

أيها المواطنون المحترمون! ياأبناء بلدي الأعزاء! إن قضية بلدنا المركزية اليوم كما بيّنا في برنامج الحزب بشكل واضح ، هي قضية محشي الباذنجان . إن ارتقاءنا إلى سوية الأمم المتحضرة مرهون بتوفر مقدار جمّ من محشي الباذنجان على مائدة كل مواطن . القضية الرئيسية هي قضية محشي الباذنجان . إذا حُلّت قضية محشي الباذنجان سنرى أن بلدنا يحقق كشوفات هائلة ، بسرعة إعجازية . إذا نظرنا إلى الدول المتقدمة والعظمى والمتحضرة لا نجد شعب أي منها يعاني من أزمة محشي الباذنجان . إن حزبنا يتناول بجدية قضية محشي الباذنجان هذه التي حلها الآخرون منذ زمن طويل . وليعلم الحزب الحاكم أن حزبنا لن يبخل بأية تضحيات في هذا السبيل .

أيها المواطنون المحترمون! إن حزبنا لا يفكر بطريقة للوصول إلى الحكم سوى طريقة الوصول القانونية بواسطة أصواتكم الانتخابية القيّمة . أوجّهُ السؤال إلى المائة والثمانية عشر ألفاً ، والأربعمائة والثلاثة والتسعين مواطناً الذين يملؤون الساحة الآن : هل تريدون محشي الباذنجان ؟

(أصوات : «نريد») . بالتأكيد تريدون ، وستريدون ، وعليكم أن تريدوا . لأن هذا حقكم . لكن التاريخ أثبت أن محشي الباذنجان لا يعطى بل يؤخذ . ومن المؤكد أننا في يوم ما سنأخذ من محشي الباذنجان حقنا . ولنسمع السلطة صوتنا من هذه الساحة مرة أخرى : هل تريدون محشي الباذنجان ؟ (أصوات : «نريد») . أيها المواطنون كونوا على ثقة أن صحناً من محشي الباذنجان لكل مواطن قليل . إنني ومن هذه المنصة أقسم بنظامنا الداخلي أن حزبنا سيوزع على كل مواطن قِدْراً من محشي الباذنجان عندما يصل إلى الحكم . ولن يجعل أي مواطن يشعر بأزمة محشي الباذنجان . عندما سنصل إلى السلطة إذا رأيتم أننا وفينا بوعودنا ستدهشون مثلما سندهش نحن تماماً . ولكن في يوم ما ، من المؤكد أن محشي الباذنجان سيطبخ في هذا البلد . . أيها الشعب! لعل هذا سيكون غداً ، أو بعد غد ، أو بعد أسبوع ، أو بعد سنة ، أو قبل مرور سنة . . ولكن أيها المواطنون سنسير في طريقنا مهما كانت التضحيات ، ودون أن يتزعزع إيماننا ، حتى نحل قضية محشي الباذنجان . (تصفيق حاد) .

في عام ٢٨٢٩ تحدث الناطق باسم الحزب الحاكم في فرتفيكا على النحو التالي :

أيها المواطنون المحترمون! يا أبناء البلد الأعزاء جداً! إن معارضينا يبتدعون قضية محشي الباذنجان من لا شيء ، وبهذا يريدون تخريب الأمن في بلادنا . مع أنكم تعرفون جيداً أن شعبنا لم يرتق بعد إلى سوية إمكانية هضم محشي الباذنجان . إن هدف المعارضة واضح تماماً . إنها تريد تخريب معدات الشعب بواسطة إطعامه محشي الباذنجان ، لكي ينتهزوا فرصة تلوي الشعب من آلام بطنه ويصلوا إلى السلطة نتيجة الفوضى التي ستحدثها آلام البطون . إن كافة جهودنا تنصب الآن في سبيل إعداد هذا الشعب للارتقاء به إلى منزلة استطاعته هضم أفضل أنواع محشي الباذنجان التي تليق به . إننا نبذل الجهود في هذا السبيل . ولم يكن مقعد الحكم في

أي وقت توقنا . عندما سيصل الشعب إلى منزلة استطاعته هضم محشي الباذنجان ، عندها من أجل استمرارنا بالجلوس على مقعد الحكم سنعدُّ للشعب محشي الباذنجان بالتأكيد . إذا أكلتم الآن محشي الباذنجان فكيف ستكون نهايتكم ؟ إني أسألكم ؟ (أصوات : « سيئة ») .

أيها المواطنون المحترمون! إن محشي الباذنجان سيليّط في معداتكم ، ولن تستطيعوا هضمه . محشي الباذنجان ثقيل لا تستطيعون تحمله . إذا أكلتموه ستصيبكم نوبات الألم . نحن لا نريد لأي مواطن أن يصاب بآلام وجع البطن . لأن آلامنا هي آلام المواطن .

في عام ٢٨٣٠ تحدث الناطق باسم حزب المعارضة الرئيسي لدولة فارتفيكا على النحو التالي :

أيها المواطنون المحترمون! إن الحزب الحاكم لا يريد معرفة ، أو رؤية الدرجة الكبيرة من الوعي التي وصل إليها شعبنا . فيدعي أن الشعب لم يرتق بعد إلى مستوى إمكانية هضم محشي الباذنجان ، وهكذا يريد إخفاء حقيقة واضحة كالشمس . إنهم يشوهون الحقائق . لا يمكن إخفاء الشمس! يدّعون أنكم لا تستطيعون هضم محشي الباذنجان . . ها ها ها . . ما هذا البرهان المضحك! عن إذنكم سأشرب كأساً من الماء (أصوات : « إذنكم معكم ») . أشكركم (أصوات : « هنيئاً ») .

أيها المواطنون! (أصوات : «نعم يا سيدي») إننا لا نسمح لأحد أن يتعدى على الباذنجان الوطني المنتج من هذه الأرض المباركة . أيها المواطنون ، القرار قراركم . أرجوكم أجيبوني : ألا تستطيعون هضم محشي الباذنجان ؟ (أصوات : «نستطيع») بالتأكيد إنكم تستطيعون . . ولا شبهة في هذا . . إنكم لا تستطيعون هضم محشي الباذنجان فحسب ، بل تستطيعون هضم محشي الكوسا ، ومحشي البندورة ، ومحشي الفلفل ، ومحشي الملفوف ، ومحشي ورق العنب بنوعيه : باللحم وبزيت الزيتون ،

ومحشي السمك ، ومحشي القواقع البحرية الطازجة أيضاً . ألا تستطيعون هضمها يامواطنين ؟ (أصوات : « نهضمها إذا وجدناها ») وأية محاشي بُلّعتم حتى اليوم! ولله الشكر أنكم هضمتموها جميعها . أي محشي بُلّعَ لكم وليّط على معداتكم ؟ من منكم آلمه بطنه نتيجة أكله محشي الباذنجان ؟ من منكم أصيب بنوبات ألم ؟

إذا كان الحزب الحاكم جاداً في قضية إيصال المواطنين إلى منزلة تمكينهم من هضم محشي الباذنجان ، فما الذي قدمه في هذا السبيل ؟ أين محشي الباذنجان ؟ أين حقول الباذنجان ؟ عليهم أن يجيبونا على هذه الأسئلة . هل يمكن عمل محشي الباذنجان دون باذنجان ؟ لا يوجد بين أيدينا محشي باذنجان ، ويقولون : إن الشعب لا يستطيع هضمه . يا سيد هل عملت محشي الباذنجان وقال لك الشعب : لا أستطيع هضمه ؟ هل قال الشعب يليّط على معدتي ؟

كيف يستطيع الشعب الوصول إلى منزلة استطاعته هضم محشي الباذنجان دون وجود الباذنجان ودون وجود محشي الباذنجان . أيها المواطنون المحترمون! نحن لا نخوض صراعاً على الكرسي . صراعنا صراع الباذنجان ، ومحشي الباذنجان . ليس صراعاً بين الأنا والأنت ، بل هو صراع المحشي . .

في عام ٢٨٣١ تحدث الناطق باسم الحزب الحاكم
في فارتفيكا على النحو التالي :

أيها المواطنون المحترمون! يتهمنا السيد الناطق باسم حزب المعارضة ، وبعبارات لا تستند إلى أصل أو دليل ، نعم يتهمنا بأننا لانزرع الباذنجان ، ولا نعمل محشي الباذنجان . هل أقول لكم شيئاً ؟ (أصوات : « قل ») حسنٌ ، ماذا كنا نقول ؟ ها . . سيفهم من هذا فوراً أن هذه الكلمات بعيدة جداً عن الحقائق . من الذي أدخل لأول مرة إلى البلد محشي الباذنجان ؟ (أصوات : « أنتم أدخلتموه ») . نعم نحن أدخلناه . هل يستطيع

معارضونا تحريف وإنكار الحقائق التاريخية . إذا كانت الأمور قد وصلت إلى هذه النقطة فياللأسف ، يالغاية الأسف . . ألسنا نحن أول من جلب بذار الباذنجان إلى البلد ، ونحن أول من وجّه إلى زرعه ، ورعايته ، وتنميته ؟ عندما تسلمنا الحكم هل كان ثمة باذنجانة واحدة في البلد ؟ قولوا الحق : هل تربيتم في بيوت آبائكم على أكل محشي الباذنجان لتطالبوا به ؟

عندما تسلمنا الحكم ، ماذا كان يوجد في حقول البلد سوى بعض سلال الباذنجان الفارغة والمقلوبة والمنثورة هنا وهناك ، إضافة إلى بعض الباذنجانات المبذّرة ؟ إن ما تسلمناه هو هذه الباذنجانات المبذّرة .

إن الذين لا يفكرون بحساسية الوضع الذي نحن فيه ، والذين لايعرفون الوضع الحساس اللاعادي الذي يعيشه العالم ، لا يتكلمون إلا بهذه السوية المتوسطة .

أيهاالمواطنون! اعلموا أن أعداءنا قد وضعوا أعينهم على باذنجاننا . ونحن إزاء هذاالوضع الحساس لا نجد من الصحيح إنتاج مزيد من الباذنجان لشد انتباه ، وحسد الأعداء . (أصوات : «صحيح للغاية») . علينا اليوم إزاء هذه الظروف الحساسة جداً ، والوضع الدقيق للغاية في العالم ، أن نتكاتف أكثر من أي وقت مضى ، ونترابط بكل معنى الكلمة ، وإنه علينا ألا نذكر الباذنجان و(الماذنجان) والمحشي ، وغير المحشي . قضية محشي الباذنجان تُحل تدريجياً وببطء . قبل كل شيء علينا أن نوصل معدات الشعب إلى منزلة تمكنها من هضم محشي الباذنجان ، بعد هذا ، من المؤكد أننا سنحضر محشي الباذنجان وننتجه . أيها المواطنون الأعزاء! في وقت كهذا حساس إلى درجة غير عادية يتوجب علينا فيه أكثر من أي وقت مضى الترابط فيما بيننا . هل من الصحيح خلق قضية من لا شيء بطرح أقوال محشي الباذنجان وما محشي الباذنجان ، وتقسيم المواطنين ، وابتداع فصل باذنجاني بين أفراد الشعب ؟ اليوم ولله الحمد ، لا توجد قضية محشي باذنجان في البلد . كانت ثمة قضية أكثر أهمية ، وأكثر أولوية ، ألا وهي

قضية نبات الفاصولياء . نحن معتكفون وبيالغ الأهمية على قضية نباتات الفاصولياء . لقد وضعنا يدنا على هذه القضية الهامة جداً . إنهم يقولون : باذنجان ، باذنجان . أرجو أن تقولوا ، كم هو مضحك طرح مطلب محشي الباذنجان في بلد لا يفكر بنباتات الفاصولياء التي تعتبر من الحاجات الضرورية لكل مواطن . ها ها ها . . نحن لا نعمل في أمور كمالية مثل محشي الباذنجان ، بل نحن نعمل من أجل تأمين الحاجيات الضرورية جداً للشعب مثل نباتات الفاصولياء .

إنهم يقولون : باذنجان ، باذنجان . لقد علّقوا على ذكر محشي الباذنجان . ثم علينا أن نفهم إلى أين تمتد جذور الباذنجان الذي يريدون إدخاله الى البلد ؟ هم هم م م . . ليضعوا هذا في عقولهم ، لن يستطيعوا في أي وقت مضى إدخال باذنجان تمتد جذوره إلى الخارج . إن باذنجاننا يكفينا ويزيد . وما يزيدْ نصدره عند الضرورة . . سترون أنه عندما يصل شعبنا إلى سوية إمكانية هضم محشي الباذنجان ، سنحول كل ما حولنا إلى حقول باذنجان ، وسيصعب المرور من الجبال والوديان والسهول والهضاب لكثرة الباذنجان . ولكن لكل شيء وقته أيها المواطنون ، أليس كذلك ؟ (أصوات : « صحيح ») .

في عام ٢٨٣٢ تحدث الناطق باسم حزب المعارضة الرئيسي لدولة فارتفيكا ، على النحو التالي :

أيها المواطنون المحترمون! أنا لا أملك منديلاً سوى هذا الذي ترونه ، وكما ترونه فهو منديل بال . فوق هذا أنا مريض ، أبقاكم الله بعافية . ولكن كما ترون ليس لدي إلا منديل بال واحد . ولا يسع إلا باذنجانة واحدة ، أو لا يتسع لها . لو وصلنا إلى الحكم في يوم ما فلن تجدوا في جيوبي ، إذا بحثتُم فيها سوى منديل واحد ممزق . أيها المواطنون المحترمون ، أريد أن أوضح لكم أننا إذا كنا نريد محشي الباذنجان ، فإننا لا نريده لأنفسنا ، إننا

نطالب به من أجل الشعب .

أيها المواطنون المحترمون! لماذا نشتري هذه الباذنجانة التي ترونها بخمسة قروش ؟ إذا كانت الباذنجانة الواحدة بخمسة قروش ، كم سيكلف قِدْر محشي الباذنجان ؟ يقول المسؤولون في الحكم : « يستطيع من يريد أكل ما يشاء من محشي الباذنجان » . ويقولون : « ثمة حرية أكل محشي الباذنجان » . إذا كانت الباذنجانة بخمسة قروش فلا أحد يستطيع أكل محشي الباذنجان ؟ قبل كل شيء لنتفق مبدئياً : بماذا تفيد حرية المحشي ، إذا كان الإنسان لا يستطيع أكل محشي الباذنجان ؟ نحن نريد أن يمتلك كل إنسان حقل باذنجان ، ويملأ قدوره بمحشي الباذنجان .

لماذا لا نأكل هذه الباذنجانة التي ترونها بسعر رخيص ؟ أيها المواطنون الأعزاء ، نحن عندما سنصل إلى السلطة سننتج باذنجاناً يسد حاجة الجميع . وسنحشو منه كميات كبيرة . لن يبقى موضع شبر فارغ . سيتحول كل مكان لم تطأه قدم إنسان ، أو لمسته بلطة إلى غابة من الباذنجان . إذا كان الحزب الحاكم لا يصدقنا فليؤجرنا حقول باذنجانه مدة شهر ، ولنر النتيجة المباركة .

في عام ٢٨٣٤ . . جرت انتخابات في فرتفيكا إحدى دول جنوب قارة ضالاشيا . سقط الحزب الحاكم ، ووصل إلى الحكم حزب المعارضة الرئيسي . وفي عام ٢٨٣٥ تحدث الناطق باسم حزب المعارضة الرئيسي قائلاً :

أيها المواطنون المحترمون! إن الحزب الذي نهج سياسة محشي الباذنجان ، وقدم الكثير من الوعود في سبيل الوصول إلى الحكم ، مع الأسف ، جفف اليوم جذور الباذنجان في البلد . ولم يبق في البلد مسكبة باذنجان واحدة . وهكذا لن يستطيع أي مواطن أكل محشي الباذنجان . إنهم يبدلون لصاقات محشي الباذنجان المعلب الوارد كمساعدات خارجية ،

ويقدمونه إلى السوق باسم محشي باذنجان محلي . أرجو أن تجيبوني أيها المواطنون : هل تشبه معلبات محشي الباذنجان هذه محشي باذنجاننا ؟ أين صنوبر هذا المحشي ؟ أين زبيبه ؟

يملؤون بيوتهم بالمناديل أولئك الذين كانوا يقولون في خطاباتهم إنهم لايمتلكون إلا منديلاً ممزقاً واحداً . ولم يفوا بأي وعد من وعودهم . أما كانوا يقولون : سيكون متوسط حصة المواطن يومياً من محشي الباذنجان قِدراً! . . بالسرعة نسيانهم وعودهم . إن المواطن اليوم يعاني من أزمة محشي باذنجان كبيرة . أين قولهم : «سننتج باذنجاناً بهذا القدر ، وهذا القدر . .» . لا يوجد اليوم حتى باذنجان المخلل . لقد صرنا راضين وقانعين بالمحشي الذي كان أيام حكمنا . إنكم اليوم تتحسرون على الباذنجان القديم .

حقول الباذنجان اليوم مهددة بالتلف . والمواطن محروم من حرية عمل وأكل محشي الباذنجان اليوم . ولشدة خوفهم لم يعد أحد المواطنين يجرؤ على مجرد ذكر الباذنجان . ولأن طرف باذنجاناتهم الكبيرة امتد خارج الحقل سجنوا زرّاعي الباذنجان . كما أن جزءاً من طباخي محشي الباذنجان في المحاكم . أيها المواطنون النتيجة شاخصة أمام أعينكم .

في عام ٢٨٣٦ تحدث الناطق باسم الحزب الحاكم في دولة فارتفيكا قائلاً :

أيها المواطنون المحترمون! إن حزب المعارضة الرئيسي ، مع الأسف ، لا يأخذ بعين الاعتبار الوضع الدولي الراهن ، وحساسيته فوق العادية إنهم يخلطون الأمور بقولهم باذنجان ، وما باذنجان ، محشي وما محشي ، ويخلقون الفوضى كي يحدوا من حملاتنا ويوقفوها . لكن لن يستطيعوا إيقافها . (أصوات : «لن يستطيعوا» . في أيام حكمهم كان كل عشرة مواطنين يحصلون على باذنجانة واحدة . أما اليوم فكل باذنجانة توزع على عشرة مواطنين . كم يجب أن تكون نية المرء سيئة حتى لا يرى هذه الحقيقة

الواضحة .

هل كان يُعمل على أيامهم مقدار أكبر من محشي الباذنجان ؟ إنهم بين الفينة والفينة يطرحون قضية محشي الباذنجان . لماذا لا يرون كل إجراءاتنا المُثْبَتَة هذه . ألا يرون نبتات الفاصولياء التي نزرعها ؟ أريد إعطاءهم إجابات إحصائية : خلال العامين الأخيرين زادت محاصلينا من الباذنجان بنسبة عشرة بالمائة . حُضّر في العام المنصرم مليار ومائتا ألف محشية باذنجان ، وقد ازداد هذا الرقم إلى ست وعشرين ألفاً وأربع وثلاثين مليوناً وأربعمائة ألف وثلاثة مليارات وثمان وأربعين ألفاً واثنتا عشرة ومائة وخمس محشيات في العام الحالي . من يُردْ أن يعد الباذنجانات فليأت ، ومن يُردْ فليزنها . المقياس هنا ، وحلب هناك ، والبحر يكذب الغطاس . بينما كان طول أكبر باذنجانة تنتج في زمانهم شبراً ونصف ، فاليوم أيها المواطنون يُصنع من الباذنجان الذي ننتجه ساريات الأعلام والسفن ، وأعمدة الهاتف ، ويصلح للاستعمال بدلاً من كافة أنواع الأعمدة!

هذا يتكلم مرة ، وذاك يتكلم في اخرى ، والأيام
تذهب ولا تعود . هم وصلوا إلى مرادهم ، ووقعنا
نحن في الخفيسة .

ما السبب، لماذا، كيف؟

دخل رجل وزوجته إلى أفخم مطاعم المدينة . فتح لهما الباب رجال يلبسون بذات تشبه بذات ماريشالات أيام زمان ، وقادوهما داخل الصالة .

كانت صالة المطعم كبيرة بقدر صالة أوبرا . جلس الرجل والمرأة إلى طاولة . كانت أنوار الثريات المتدلية من السقف ترف جفني الرجل . كانا يدوسان فوق سجاد وبره طويل . وكانت المناشف البيضاء عريضة بقدر غطاء مخدة . وضع النادل أمامهما ثلاث شوكات ، وملعقتين وسكينتين .

طلبا الطعام .

كان ينبعث صوت موسيقى . لا يُرى عازف البيانو . أما عازف الكمان فكان خلف المكرفون . إنه في حدود الخمسين عاماً من عمره . كان له نظارة .

قالت المرأة :

ـ هذا عازف الكمان . .

قال الرجل :

ـ نعم . . يعزف كل يوم .

سألت المرأة :

ـ هل بقي لديه أمل ؟

ـ ممكن أن يكون قد فقد أمله أحياناً . ولكن غالباً ما هو متأمل .

خاصة عندما يشرب . .

ـ وأمله عندما بدأ أول مرة يعزف على الكمان ؟ . .

ـ لعله راح ، لم يبق منه شيء .

ـ لعله يعتقد أنه لم يُفهم ؟ . .

ـ من الممكن أن تكون الحقيقة هذه . .

ـ الكل لديهم شيء من هذا .

جاء إلى الطاولة الطويلة التي بجانبهما عشرة أشخاص بين رجل وامرأة . وجلسوا . أما إلى الطاولة التي على اليمين كان ثمة أربعة رجال .

قال الرجل لزوجته :

ـ أنا متضايق . .

قالت المرأة :

ـ لعل الإضاءة هي السبب ، فالأنوار خافتة . .

فلت الرجل عقدة ربطة عنقه ، ثم فك زر ياقة قميصه .

ـ لعلك متضايق من الموسيقى . .

قال الرجل :

ـ لا ، متضايق من الجو . إنه جو خانق .

كان الرجل يرمق متناولي الطعام . لف الدخان وجه الرجل الذي كان بجانبه . ثم تحول ذاك الوجه الى وجه وحيد قرن . كان رأس وحيد قرن ضخم . إنه وحيد قرن بجسم إنسان جاء إلى المطعم يتناول الطعام . كان ينفتح فمه بشكل كبير جداً ، وتنتفخ حنكاه ، ثم تنزلق قبضة من بلعومه إلى الأسفل .

تحول رأس امرأة عجوز إلى رأس خنزيري .

قال الرجل :

ـ أنا متضايق . .

قالت المرأة :

ـ الجو حار ، لا بد أن هذا هو السبب . ثم إن ثمة دخان تبغ . .
رأى الرجل على الطاولة المقابلة رجلاً له رأس بغل . فقال لزوجته :
ـ انظري إلى هؤلاء . كلهم حيوانات . حيوانات برية قبيحة . انظري إلى هذه المرأة أليست فرس نهر ؟
قالت زوجته :
ـ يتهيأ لك ، إنك متضايق وهذا هو السبب . .
ـ إذا مات فجأة الناس الذين في المطعم ، إذا ماتوا الآن فجأة فما الذي سيخسره العالم ؟
أنت كنت تحب الناس .
ـ أنا أحب الناس . . الناس . . إذا مات إنسان يجب أن يكون العالم قد فقد شيئاً .
قالت زوجته :
ـ هم أيضاً يقولون عنك هذا . إنهم يقولون : «لو مات هذا الرجل فماذا سيحدث ؟»
ـ لا إنهم لا يفكرون . انظري إلى هذا الوجه ذي العينين المتضيقتين بقدر رأس إبرة . ليس لديه أية هموم حول العالم . إنسان كهذا لا يستطيع التفكير ، ولا يعرف كيف يفكر . .
الرجل الذي بجانبه يقضم السرطعان ، وموزات اللحم ، وفخذ العجل .
ـ لا بد أن لديهم همومهم أيضاً .
ـ نعم . . همومهم الذاتية فقط . وللذئب همومه الخاصة أيضاً .
بعد قليل ، قال الرجل مجدداً :
ـ أكاد أختنق .
قالت زوجته :
ـ لنخرج .
قال الرجل :

ـ أتعرفين ماذا يخطر ببالي ؟ لو كنت عملاقاً بين هولاء الحيوانيي الوجوه . لوقفت عند باب المطعم وامتحنت كل من هنا .

بينما كان يقول هذا ، فجأة صرخ :

ـ يداي تكبران . .

قالت زوجته :

ـ وقامتك تطول .

تفسخ الكرسي من تحت الرجل .

قالت المرأة :

ـ رحماك يا رب ، ماذا يحدث لك ؟ كم أنت تضخمت ؟! .

كان الرجل يكبر حيث هو جالس ، ويتضخم ، وتطول قامته . فجأة قفز الرجل المتعملق من مكانه ، وأمسك بباب صالة المطعم ، ثم صرخ قائلاً :

ـ هيـيـيـيـ . . . . ـه!!

أحدث صوته هزة جعلت من في المطعم ينقطع عن تناول الطعام والكلام .

قالت المرأة لزوجها الذي قطع طريق الباب ، متوسلة :

ـ لنذهب .

صرخ الرجل بمن في المطعم :

ـ اصطفوا جميعاً بالدور ، سأمتحنكم!

لخوفهم ، اصطفوا أمام الرجل الذي يساوي حجمه أربعة رجال . سأل من في المقدمة :

ـ ما السبب ؟

عندما لم يستطع الرجل الإجابة ، ضربه كفاً بالمقلوب على وجهه ، وصاح به :

ـ اغرب عن وجهي . .

سأل الرجل الذي جاء بعده :

ـ لماذا ؟

عندما لم يتلق منه جواباً ، أنزل على مؤخرته رفسة قذفته خارج الباب . سأل لمن كان دوره الثالث :

ـ كيف ؟

عندما لم يتلق منه جواباً ، بصق في وجهه .

قال لإمرأة سمينة :

ـ من ؟

ولا واحد ممن في المطعم كان يستطيع الإجابة عن أسئلة : «ما السبب ؟ لماذا ؟ كيف ؟ من ؟» . وكان الرجل يهينهم ويرمي بهم خارج الباب .

قال صوت هامس انبعث من الجمع :

ـ لنسأله نحن أيضاً ؟

حركَ الجمعَ هذا الصوتُ الهامسُ . صاح الجميع معاً :

ـ لنسأله!

قال رجل سمين من بينهم :

ـ أنا سائق ، قل لنر ، هل تعرف كيف يُنفخ عجل السيارة ؟

سكت الرجل . سكت ، ولكن صغر حجمه قليلاً ، وقصر طوله بعض الشيء كبالون نفث هواءه . ثم قالت امرأة :

ـ أنا عاهرة ، قل لنر . ما هو عدد أنواع المضاجعة في السرير ؟

لم يستطع الرجل الإجابة عليها أيضاً . صغر قليلاً ، وقصر مقداراً . وكلما صغر ، كان يطول ويتضخم أولئك الذين يسألونه أسئلة لا يعرفها .

خرج أحدهم إلى الأمام :

ـ قل لنر ، إذا كان راتبك الشهري ثلاثمائة ليرة ، كيف تستطيع صرف ثلاثة آلاف ليرة ؟

لم يستطع الرجل الإجابة على هذا أيضاً . كان لا يستطيع الإجابة على

أي سؤال . قالت زوجته :

ـ صرت بطولك السابق ، وحجمك السابق ، هيا لنذهب . .

فقال :

ـ صحيح ، سأصغر ، وأصغر ، وأزول . لنذهب قبل أن يسأل الآخرون أسئلة أخرى وأذوب .

خرج الرجل مع زوجته . ضرب هواء بارد وجهيهما . قالت المرأة :

ـ يجب أن يكون لهم وجودهم أيضاً . يجب أن يعيشوا . إذا لم يكونوا موجودين فلا وجود لك ، ولا وجود لضيقك .

تمتم الرجل لنفسه قائلاً :

ـ ما السبب ؟ لماذا ؟ إلى أين ؟ متى ؟

فانتيكو

كان في قديم الزمان ، في احدى الدول كاتب مسن جداً . كان يكتب مقالة يومياً لجريدة . لم يكن في تلك الدولة كثير ممن يهتم بمقالاته ، أو يقرؤها . لهذا السبب كان هذا الكاتب يعاني من القلق . فيفكر قائلاً لنفسه : ماذا سأفعل لكي أشد انتباه القراء ؟

في مساء أحد الأيام أسند رأسه بين يديه ، وقال لنفسه : « ماذا أفعل ؟ ماذا أكتب ؟ » كان عليه أن يكتب مقالة تنشر بعد الغد . لم يكن في رأسه موضوع يشد انتباه الجميع ، بل حتى إنه لم يكن يخطر بباله أي موضوع . وهو مضطر للكتابة يومياً . تناول القلم ورسم على الورقة التي أمامه أشكالاً لا معنى لها . كان دائماً يفعل هذا عندما لم يكن في رأسه ثمة ما يكتبه . وبالصدفة رسم زورقاً شراعياً . ثم كتب اسمه ، ثم أعاد كتابته . فكر قائلاً : « ماذا أكتب للغد ؟ » بدأ يكتب اسمه بأحرف كبيرة . ظلل الأحرف الكبيرة المفرع داخلها ، بقلم الرصاص .

عندما امتلأت الورقة التي أمامه بالخطوط والأشكال ، رماها بعصبية ، وتناول ورقة ثانية . ثم بدأ يرسم نجوماً . كتب على الورقة بعناية حرف « ف » . كان قد رسم هذا الحرف بدون وعي كما رسم بقية الأشكال . ثم كتب إلى جانبه حرف « ا » . بعد هذا رسم شكلاً سيئاً لشمس وآخر لقلب . ثم بدأ يكتب في أمكنة مختلفة من الورقة بعض الحروف بشكل عشوائي :

«ف» ، و«ا» ، و«ن» . . ثم كتب «ت» ، بعد هذا «ي» .

عاد يقول لنفسه : «ماذا سأفعل ، ماذا سأكتب ؟» كان عليه أن يكتب شيئاً كل ما يقرأه يقول : «يا سلام على هذا الرجل ، لقد أبدع!»

كتب على الورقة حرف «ك» ثم حرف «و» ، ثم رسم ما يشبه ذيل الحصان .

وبينما كان يفكر فيما سيكتبه ، أحس بما يشبه الصحوة . رصف تلك الحروف التي كتبها في أرجاء مختلفة من الورقة هنا وهناك وهو بين صاح وشارد وقرأها : ف ـ ا ـ ن ـ ت ـ ي ـ ك ـ و . .

قرأها مرة أخرى : فانتيكو . . قال لنفسه فرحاً :

ـ هاااا هاه . . وجدتها!

في النهاية وجد ما سيكتبه للجريدة . تناول ورقة بيضاء . كتب في رأسها «فانتيكو» . . إن كل الصعوبات تكمن قبل إيجاد الموضوع .

جذبت اهتمام الكثير المقالة المعنونة فانتيكو ، التي نشرت بعد يوم في الجريدة . كان الجميع يتحدث عن الفانتيكو . أما المقالة فقد كانت سيئة جداً .

كان الجميع يتساءلون عما إذا كانوا قد قرأوا مقالة «فانتيكو» . والذين لم يقرأوها يبحثون عن الجريدة ، وبعد أن يجدوها يقرؤون المقالة المعنونة فانتيكو . والجميع يتساءلون :

ـ ما هو الفانتيكو ؟

لا أحد يعرف ماذا تعني فانتيكو . ولكن الحقيقة الوحيدة التي تعلمهاالقراء من المقالة هي أن الفانتيكو شيء غاية في السوء .

بعد ثلاثة أيام كتب ذلك الكاتب في الجريدة التي يعمل فيها مقالة اخرى بعنوان : «الفانتيكو ؟» . كانت مقالة مخيفة للقراء . تبين أن الفانتيكويين أناس غاية في الخطورة . أينما حلّوا يُغَوِّرُونَ المكان الذي يحلون فيه ، ويهدمونه . وهؤلاء أسوأ من الشياطين .

وخلال شهر واحد ، كتب هذا الكاتب ست مقالات حول : « الفانتيكو » و« الفانتيكوية » و« الفانتيكويين » ، وقد حققت هذه المقالات اهتماماً لم يُر له من قبل مثيل .

بدأ الكتاب الآخرون الذين شعروا بهذه الأهمية للفانتيكو بالكتابة في هذا الموضوع . وكانت تصدر هذه المقالات تحت عناوين مثل : « يسقط الفانتيكويون » ، « الفانتيكويون السفلة » « الموت للفانتيكوية » .

ومع مرور الأيام بدأ ينتشر الخوف من الفانتيكوية . وتوسعت شهرة الكاتب أول من كتب عن الفانتيكو التي لم تكن معروفة حتى يوم تعريفه بها . وكان يُعدُّ هذا الكاتبُ العظيمُ منقذاً . لولا أنه قد استشرف هذه الخطورة المخيفة ، وحكى عنها ، لما عرفها أحد من الناس وهم يواجهونها ، وهي أمام أنوفهم .

حكوا عن خطورة الفانتيكو التي تزيد عن خطورة السل والكوليرا والملاريا . وحسن لو كان الأمر قد انتهى عند هذا الحد . . فوق هذا ، كان الفانتيكو ينتقل بالعدوى . لو دخل فانتيكوي ، إلى مكان فيه ألف شخص ، فخلال دقيقة واحدة سيحول الألف إلى فانتيكويين ، من أجل هذا يكفي الفانتيكوي ويزيد شهقة أو زفرة ، أو ثأبة . أما إذا عطس فلا يستحق الذكر تحويله عشرة آلاف شخص إلى فانتيكويين . لهذا السبب أينما وجد فانتيكوي يجب الانقضاض عليه قبل أن يتنفس ، أو يعطس ، أو يسعل ، كما يجب سحق رأسه ، وتفتيت مخه ، ثم حرقه وجعله رماداً . وكان لا يتم التخلص من الفانتيكويين بحرقهم وجعلهم رماداً ، بل يجب جمع هذا الرماد ، ورميه في قاع البحر ، وجمع دخان حرقهم وإطلاقه إلى السماء .

شنف من يعيش في تلك الدولة آذانه ، وبحلق عينيه ، وتأهب لتلقي ما سيبثه قلم الأستاذ الكاتب ، أول من نبه إلى خطورة الفانتيكو . وكان الجميع شباباً وشياباً ، صغاراً وكباراً ، أصحاء ومرضى ، رجالاً ونساءً يقظين لخطورة الفانتيكوية .

في أحد الأيام ، كتب الأستاذ الكاتب مقالة بعنوان : « كيف نتقي الفانتيكوية ؟ » وحسب المقالة ، يجب على الإنسان لكي يتقي الفانتيكوية أن يهز رأسه ،وألا يرفع قدميه عن الأرض أثناء المشي وأن يرف بجفونه دائماً .

والذين لا يجرون أقدامهم على الأرض جراً ، أو يرفعون أقدامهم في أثناء سيرهم ، ولا يرفون أجفانهم ولا يهزون رؤوسهم ، لا يمكن أن يكونوا إلا فانتيكويين .

صار كل شخص يرصد الآخر . من لا يعمل هذا ينقضون عليه على أنه فانتيكوي . أصبح الناس لخوفهم من إلصاق تهمة الفانتيكوية بهم يسيرون جارين أقدامهم على الأرض جراً ، ويرفون أجفانهم دائماً ، ويهزون رؤوسهم . وإن لم يفعلوا هذا ، فلن يكون هناك أي عائق للانقضاض عليهم ، واعتقالهم .

وبسبب جر الناس لأقدامهم جراً في أثناء المسير صاروا يذهبون إلى أعمالهم ، أو إلى أي مكان آخر متأخرين . كانوا يفوتون مواعيد الحافلات ، والترامواياات ، والسفن ، والقطارات لا يستطيعون اللحاق بها بأي شكل .

ولخوف أناس تلك الدولة من إلصاق تهمة الفانتيكوية بهم ، صاروا يجرّون أقدامهم ويهزون رؤوسهم ، ويرفون أجفانهم ، فلهذا لم يعد يعرف أيهم فانتيكوي ، وأيهم ليس فانتيكوياً . لأن الجميع صاروا يعملون هكذا . لكن الأستاذ الكاتب أسرع إلى نجدتهم . قال إنه لا يكفي جر الأقدام ، ورف الأجفان ، وهز الرؤوس لاتقاء الفانتيكوية . لأن الفانتيكويين بدأوا يعملون هذا أيضاً . لهذا السبب كان لا يستطاع الفصل بين الفانتيكويين ، وأعداء الفانتيكوية . إثر هذا كتب الأستاذ الكاتب أنه من أجل اتقاء الفانتيكوية يجب ثني الركبة مع كل جرة قدم ، وإطلاق صوت : « هوتا ـ هاتا ـ هوب! . . » . صار كل شخص يعمل هذا . وإذا غلط أحدهم ، وقال : « هوبا ـ هابا ـ هوب » بدلاً من « هوتا ـ هاتا ـ هوب » ، أو قالها بشكل آخر

يقبض عليه بتهمة الفانتيكوية . صار كل شخص يشنف أذنيه ، ويحملق عينيه على الآخر . صار الجميع لخوفهم ، ولإظهار أنفسهم بأنهم ليسوا فانتيكويين يصرخون إلى حد يكادون فيه تفجير حناجرهم : «هوتا ـ هاتا ـ هوب . .!» كانت تتردد أصداء هذه الأصوات . الجبال والصخور تردد أصداء : «هوتا ـ هاتا ـ هوب . .»

في مساء يوم ما غضب الأستاذ الكاتب من صاحب الخمارة التي يذهب إليها كل مساء ويشرب فيها . وسبب غضبه هو طلب صاحب الخمارة الديون المتراكمة على الكاتب منذ زمن طويل . سأله صاحب الخمارة :

ـ ياترى ، هل تستطيعون دفع شيء من دينكم ؟

لحظتئذ ، صاح الأستاذ الكاتب لمن كان هناك مشيراً إلى صاحب الخمارة :

ـ ها هو ،واحد فانتيكوي ، امسكوه!

كان يقسم صاحب الخمارة المقبوض عليه متوسلاً :

ـ والله بالله تالله لست فانتيكوياً . .

لم يصغ إليه أحد . دافع صاحب الخمارة عن نفسه على النحوالتالي :

ـ كيف يمكن أن أكون فانتيكوياً ؟ رحماكم . منذ ظهور الفانتيكوية لم أرفع قدميَّ عن الأرض ولو بمقدار إصبع . أسير دائماً جاراً قدميَّ . وفي كل خطوة أثني ركبتي . ودائماً أهز رأسي . صرت هزاز الرأس . وأرف جفوني حتى في الليل أثناء النوم . غير هذا دائماً أقول ملء صوتي : «هوتا ـ هاتا ـ هوب» دون توقف مثل الضفادع .

إثر هذا ذهبوا إلى الأستاذ الكاتب وسألوه عن حقيقة الأمر ، فقال لهم :

ـ لا تصدقوه! إن الفانتيكويين يتقمصون كل الشخصيات . وهذا فانتيكوي متقمص هيئة صاحب خمارة .

بسرعة انتشر هذا الأسلوب في أرجاء الدولة بسبب إفادته لكثير من الأشخاص . يقول صاحب البيت عن المستأجر لكي يطرده من بيته ، ويؤجره

بسعر أعلى .

ـ فانتيكوي!

ـ كيف عرفت فانتيكويته ؟

ـ فانتيكوي تقمص شخصية مستأجر .

والمستأجر الذي يريد أن يسكن في البيت المستأجره مجاناً يقول عن صاحبه :

ـ فانتيكوي!

ـ كيف عرفت فانتيكويته ؟

ـ فانتيكوي تقمص شخصية صاحب بيت .

ويتبادل السمان والزبون الاتهام :

ـ فانتيكوي تقمص شخصية سمان!

ـ فانتيكوي تقمص شخصية زبون!

صار سكان تلك الدولة من أجل أن يتخلصوا من إلصاق تهمة الفانتيكية بهم يصرخ كل منهم في وجه الآخر :

ـ فانتيكوي . .

من يفاجىء الآخر بسرعة أكبر يخلص نفسه . إذا لم يصرخ المرء في وجه أول إنسان يظهر أمامه : فانتيكوي ، سيصرخ الآخر بهذا .

صار من غير الممكن معرفة القالب الذي يتقمصه الفانتيكويون ، ومتى وكيف ولماذا يتقمصون . كان يُبحث عن شخصيات يتقمصها الفانتيكويون ، ولا توجد ، لم تبق أية شخصية . .

في هذه الأثناء أشار الأستاذ الكاتب إلى أحدهم بأنه «فانتيكوي» ، لكن الآخر صرخ مشيراً إلى الأستاذ الكاتب :

ـ تقمص الفانتيكويون شخصيات أعداء الفانتيكوية .

لو كان قد قال الأستاذ الكاتب : «ليس ثمة ما يدعى فانتيكوية . أنا الذي اخترعتها» عندها سيخسر «أستذته» ، وإذا قال : «أنا فانتيكوي»

سيخسر ذاته .

لهذا قال متأتئاً

ـ أنا ، هل أنا فانتيكوي ؟ أنا ها ؟ هل أنا ؟

وأضاف وهو يئن :

ـ انظروا إلى هيئتي ثم احكوا . من يتقمص شخصيتي ؟

بعد هذا ، صار يثني ركبته ، ويرف جفونه ، ويهز رأسه ، ويقول :

ـ هوتا ـ هاتا ـ هوب! هوتا ـ هاتا ـ هوب . .

حكاية سيارة رسمية

جانبت اللوحة المكتوب عليها : « ممنوع الوقوف » ، وداست برجلها الخلفية اليمنى على رصيف المشاة . صفر شرطي السير بعصبية . ورداً على شرطي السير قذفت السيارة السوداء نفختين من الدخان من مدخنتها . أخرج شرطي السير ، الذي وصل غضبه إلى نهايته ، دفتر المخالفات من جيبه وركض وهو يشهق من أنفه . قالت السيارة السوداء لشرطي المرور دون تحريك نفسها :

ـ انظر إلى سماتي ثم اقترب مني! .

ذهب شرطي المرور إلى خلف السيارة ليأخذ رقمها . عندما رأى من سماتها اللوحة الرسمية الحمراء التي تبدأ بصفرين ، وبجانبها رقم صغير ، ضرب قدمه بالأرض « طاخ » ووقف باستعداد ، ثم أدى التحية وقال :

ـ عذراً يا سيدتي السيارة ذات اللوحة الرسمية . أنا ظننت حضرتك سيارة أجرة أو ما شابهها .

أطلقت السيارة الرسمية من مدخنتها ضحكة :

ـ قه . . قه . . قه . .

احمرّ شرطي المرور حتى رأس أنفه ، وصرخ بسائق سيارة خدمة ، وكتبه مخالفةً لأنه يسير بسرعة ، وكتب آخر مخالفة لأنه يسير ببطء . وكتب أحدهم لأنه ركّب ركاباً ، وكتب آخر لأنه لم يُركّب . .كما خالف

أحدهم لأنه لم يتوقف . عندها هدأت حدته وبردت أعصابه .

في هذه الأثناء مرت سيارة خدمة قديمة بالسيارة الرسمية وقالت لها :

ـ مرحباً يا صديقتي ، كيف حالك ؟

برمت السيارة الرسمية أنفها قائلة :

ـ من أين لك صداقتي أنا ؟

ـ يالسرعة نسيانك ذكرياتك! ألسنا إنتاج معمل واحد ؟ ألم نأت معاً إلى الجمارك ؟

هنا تذكرت السيارة الرسمية صديقتها من الحي القديم . ولشدة تأثرها ذرفت قطرتي بنزين من خزانها وقالت :

ـ آه يا صديقتي المسكينة ، ماذا جرى لك ؟ لماذا أنت مهلهلة هكذا مثل حزب سقط لتوه من السلطة ؟ . .

بدأت سيارة الخدمة تحكي عن حياتها بأسى :

ـ بعد انفصالنا في الجمارك ، اشتراني تاجر خردة حديد . من الصباح حتى الظهيرة كانت زوجة التاجر تأخذ دروس قيادة السيارة في بيت شاب صديق للعائلة . بعد الظهر كان يدرب الشاب المرأة الممتلئة عليّ . وفي الليل كان يستخدمني ابن التاجر ، وأحياناً ابنته كعربة نوم وليس كسيارة . وإذا كنت بقيت الى هدا الوقت سيارة فهذا من عزة الروح . وهل يبقى حيل بعد رؤية كل هذه المناظر ؟ تخ مقودي ، وأهترأت فراملي .

في هذه الأثناء باع صاحبي تاجر الخردة الحديدية بفاتورة مزورة تنكاً صدئاً على أنه فولاذ صافي بربح ألف وخمسمائة بالمائة ، فخفض أسعار السوق ، لهذا السبب بلّغ عنه تاجر خردة آخر . عندما دخل التاجر المسكين السجن بقيت أنا بين أيدي زوجته ومعلمها لقيادة السيارة وابنة التاجر وابنه . لا بد أنك تذكرين ما نشرته الجرائد أنه «تم القبض على السيدة ج .ن . المنسوبة إلى إحدى العائلات العريقة من أكابر بلدنا مع رجل في وضعية غير لائقة داخل سيارتها الخاصة» . السيارة التي كانت

مسرح الوضعيات غير اللائقة هي أنا . بعد هذا ، اشتراني سمان . جعلني سيارة أجرة . كان يعمل عليَ سائق . يأخذ نصف الربح ويسرق ثلاثين بالمائة منه ، ويصرف عشرة بالمائة ، ويعطي الباقي للسمان . وفي اليوم التالي يأخذ منه ضعف ما أعطاه بحجة أجرة تصليح . وفي النهاية لكي لا يخسر السمان دكانه ويقعد دون عمل ، أهداني للسائق . عندما خطف السائق إحدى الراكبات إلى جبل (قايش) دخل السجن . حكايتيَ طويلة يا صديقتي . . لصوص سيارات كثيرون سرقوني ، وكثير من الأيدي تغيرت علي . . آه من الطرق التي سرت عليها ، حتى المشاة لا يستطيعون المرور منها . كم إنسان دهست ؟ كم مرة دخلت الدكاكين ، وتسلقت المداخن ، وضاجعت الأشجار ، وطرت إلى البحر . إذا أنا ما صرت بهذه الحالة ، فمن سيصير ؟ . . حسنٌ ، احكي لنا أنت كيف بقيت تتلامعين هكذا مثل امرأة خرجت لتوها من معهد للتجميل ؟ . .

بدأت السيارة الرسمية تحكي قصتها :

ـ أنا أستيقظ صباحاً في مرآبي . آخذ السيد الصغير ، والآنسة الصغيرة إلى مدرستهما . ثم إذا كان السيد البيك لم يركب السيارة الرسمية الأخرى يذهب بي إلى مقامه . ولكن ليس دائماً . إنه يذهب إلى عمله أيام مللِه من الجلوس في البيت ، وأيام عدم سفره . ثم آخذ السيدة الخانم إلى حلاقها أو إحدى جاراتها ، أو إلى حفلة لعب ورق . وإذا بدأن بالقيل والقال ، أتكئ أنا أمام البيت وأنام . أحياناً آخذ السيدة الخانم إلى خياطها . أحياناً تذهب الست الكبيرة إلى السوق لتشتري بكرة خيطان ، أو إبرة ، او ماشابه ذلك ، فتركبني . أكثر الأحيان أحمل الطباخ والخادم . إذا ذهبت إلى السوق لشراء بعض الحاجيات ، فلا بد أن ينسى الثوم أو البصل . ولا يكمل شراء الطلبات إلا بعد ثلاث أو أربع سفرات . وفي الليل أذهب إلى حفلات الشاي ، والولائم ، والحفلات التنكرية .

قالت سيارة الخدمة التي عتقت قبل أوانها :

ـ ألا يقال لا يجوز استخدام السيارات الرسمية في الأعمال الخاصة ؟
أطلقت من مدخنتها دفقة دخان ، وقالت :
ـ منذ زمن حضرة السلطان بلموط ويقال ما يشبه هذا . . ولكن هل هناك فرقِ بين الرسمي والخاص ؟ اسمعي ، ركوب الخادم لي ، والذهاب إلى السوق لشراء الثوم ليس عملاً خاصاً ، بل عمل رسمي .
قالت سيارة الخدمة :
ـ وهل هذا ممكن ؟
ـ لِمَ لا يكون ممكناً ؟ أنا سيارة من ؟
ـ سيارة الشعب
ـ من يخدم سيدي ؟
ـ الشعب .
ـ الخادم والست ، وهذا ، وذاك ممن ؟
ـ من الشعب . .
ـ هذه الأرض لمن ؟
ـ للشعب .
ـ لمن الأشجار والخضراوات ، والبصل والثوم الذي تنتجه هذه الأرض ؟
ـ من المؤكد أنها للشعب . .
ـ أرأيتِ ؟ سيارة الشعب ، تسير على طريق الشعب ، تحمل خدام الشعب ليجلب محاصيل الشعب . أين خاصية هذه الشغلة ؟ السيارة للشعب ، والثوم للشعب . وهل بيننا تفريق ؟ ألسنا مستعدين جميعاً لنكون قرابين للشعب ؟

الفهرس

الشخص المنتظر 5

القديس موكتوس والعاهرة كامينا 15

إلى الشرق كر ، وإلى الغرب فر 25

تري لي لم 35

لنتقدم ، لننهض ، لنسمو 43

نحن معشر الإنسان 53

حكاية ذئب مختلفة 61

شك شاك 67

دولة الراحة 77

الدبوس الضخم 85

حكاية معاصرة 95

بذرة التين 99

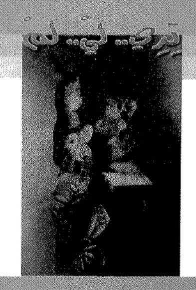
طليعة تحت الذيل 109

صراع الباذنجان 115

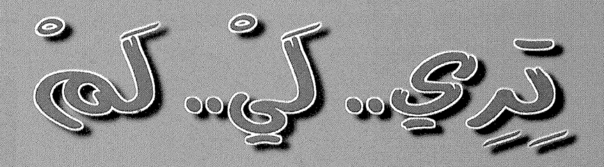
ما السبب ، لماذا ، كيف ؟ 125

فانتيكو 131

حكاية سيارة رسمية 139



لوحة الغلاف : سعد علي



ISBN => 2-84305-051-0
EAN => 9782843050510